

أنا والقرآن

(سورة آل عمران)

نحو فهم حضاري للقرآن (٢)

د. جاسم سلطان







هذا الكتاب

إن متعة الارتحال مع القرآن متعة لا تعدلها متعة، فمع كل نقلة يتم استفزاز العقل لاكتشاف المعنى والعلاقات، فهناك دائماً ما يستثير السؤال، وهناك دائماً ما يحتاج إلى تفكّر، والناس في البحث في القرآن يسلكون طرقاً شتّى، فالظواهر البشرية عامة تظهر في المجتمع البشري بصور مختلفة، والقرآن يقدم نماذجها الأساسية في سياق الأحداث التي أحاطت بالدين لحظة تنزله، وهذه النماذج هي ما نحرص على الكشف عنها في لمسات قصيرة مع كل آية، ويعيد القرآن تكرار كثير من المعاني في سياقات شتى ربما لأهميتها وربما لطرقها من زاوية مختلفة باعتبار السياق.

في كتابنا الأول أنا والقرآن: محاولة فهم، التقينا بسورتين عظيمتين هما الفاتحة والبقرة.. وفي هذا الكتاب، الثاني، سنلتقي بسورة آل عمران، فهي سورة طويلة ترسم لنا ملامح نشأة الديانة المسيحية وجذورها بالطريقة القرآنية الفريدة التي تركّز على مشاهد أساسية تختصر بها المسافة الزمنية، حتى يراها الإنسان ويستشعرها وكأنها تتم أمامه مختزلة التفصيلات المتعلقة بالزمان والمكان والأسماء بأقصى قدر ليظل العقل مرتبطاً بالموضوع ذاته فلا يتشتت. والسورة تعالج مشكلة تأليه المسيح عيسى ابن مريم وترد على حجاج النصارى حوله؛ لتكشف لنا بعداً آخر من تعامل الإنسان مع الدين الذي ينتهي بتقديس البشر ورفعهم فوق مستوى البشرية، حتى تحذر الأمة الخاتمة من ذلك الطريق الخطير، فالموضع بقدر ما هو خطاب للنصارى ولكنه درس لما يحدث للبشر في علاقاتهم، وكيف أن الناس ينتقلون من التقدير إلى التقديس ويختفي الحد الفاصل بين الإنسان وبين المقدس.

الثمن: ٧ دولارات

أو ما يعادلها

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ القاهرة ـ الدار البيضاء

المكتب الرئيسي - بيروت

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ ـ ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@arabiyanetwork.com

ISBN 978-614-431-098-4



أنا والقرآن

(سورة آل عمران)

نحو فهم حضاري للقرآن (٢)

أنا والقرآن

(سورة آل عمران)

د. جاسم سلطان





الفهرسة أثناء النشر - إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر
سلطان، جاسم
أنا والقرآن (سورة آل عمران)/ جاسم سلطان.
٢٠٨ص. (نحو فهم حضاري للقرآن؛ ٢)
ISBN 978-614-431-098-4
١. القرآن الكريم - تفسير. أ. العنوان. ب. السلسلة.
297

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٥

مدير المشروع: أ. جمال المليكي
المتابعة والتنسيق: أ. أحمد درويش

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت - المكتب الرئيسي: رأس بيروت - المنارة - شارع نجيب العرداتي
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail:info@arabiyanetwork.com
القاهرة - مكتبة: وسط البلد - ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥ محمول: ٠٠٢٠١١٥٠٢٩٦٤٩٢
E-mail:info@arab-network.org
الدار البيضاء - مكتبة: ٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧ محمول: ٠٠٢١٢٦٦٤٣٢٣٠٤٠
E-mail: info-ma@arab-network.org

المحتويات

مقدمة

إن الارتحال مع القرآن متعة لا تعدلها متعة، فمع كل نقلة يتم استفزاز العقل لاكتشاف المعنى والعلاقات، فهناك دائماً ما يستثير السؤال، وهناك دائماً ما يحتاج إلى تفكّر، والناسُ في البحث في القرآن يسلكون طرقاً شتّى، ونحن هنا نغترف من البحر ذاته والطريق الذي سنسلكه يقوم على محاولة إدراك العلاقات التي تربط النص بلحظتنا الحاضرة، ونركز على ما يمس الإنسان كل الإنسان وفي كل عصر، فالظواهر البشرية عامة تظهر في المجتمع البشري بصور شتى، والقرآن يقدم نماذجها الأساسية في سياق الأحداث التي أحاطت بالدين لحظة تنزله، وهذه النماذج هي ما نحرص على الكشف عنها في لمسات قصيرة مع كل آية، وكثير من المعاني يعيد القرآن تكرارها في سياقات شتى ربما لأهميتها وربما لطرقها من زاوية مختلفة باعتبار السياق.

حين نعود قليلاً إلى الوراء سنجد أننا التقينا بسورتين عظيمتين في كتابنا الأول **أنا والقرآن**:

الفاتحة: وفيها خارطة القرآن الكبرى ومفاتيح سوره وآياته، خارطة تقول لنا مجموعة رسائل كبرى:

١ ـ البسملة هي اختيار لمنظور شامل للحياة.

٢ ـ علاقة الخالق بخلقه أساسها الرحمة.

٣ ـ رحمة الله ممتدة لكل العالمين.

٤ ـ مشروع الدين هو توصيل الرحمة للعالمين.

٥ ـ مفهوم اليوم الآخر؛ يعني: العدل المطلق ويعني أيضاً زيادة الفاعلية في الدنيا.

٦ ـ مفهوم العبادة في القرآن؛ يعني: كل عمل قاصد إلى الله.

٧ ـ مفهوم الاستعانة ضروري لمواجهة صعوبة المهمة في الأرض.

٨ ـ صراط الذين أنعم الله عليهم معرَّف بعمل الصالحين في القرآن.

٩ ـ التحذير من خلل الضمير ومن خلل المنهج.

البقرة: وفيها قصة بني إسرائيل التي بينت خطورة سوء التلقي من الرسل بسبب رواسب العقول وخطورة الإضافة والتحريف للدين مع طول الأمد وخطورة دور الأحبار والرهبان في تحريف الدين وسياساتهم في الحجب والتمرير، كل ذلك لتقدّم نموذجاً حياً لما آلت إليه اليهودية، ولتحذر أهل الدين الجديد من ذلك المسار لعلهم يحتاطون له فلا يقعون في أخطاء من سبق.

ولننظر في سورة آل عمران لنستكمل جزءاً آخر من رسالة السماء.

آل عمران

كيف يُؤَلَّه البشر؟

في البقرة تعرفنا إلى كيفية تحريف الدين عبر المؤسسة الدينية وكيف يعاد تعريف الأشياء، وكيف تتم عملية الحجب والتمرير، والطبيعة النفسية والعقلية التي تقود إلى كل ذلك.

وسورة آل عمران تبيّن منزلقاً آخر تقع فيه الأديان فهي سورة طويلة ترسم لنا ملامح نشأة الديانة المسيحية، ووجهاً آخر من أوجه التعامل مع الدين، وتروي لنا بشيء من التفصيل جذور تاريخ نشأة المسيحية بالطريقة القرآنية الفريدة، التي تركّز على مشاهد أساسية تختصر بها المسافة الزمنية حتى يراها الانسان ويستشعرها وكأنها تتم أمامه، وتختزل التفصيلات المتعلقة بالزمان والمكان والأسماء بأقصى قدر ليظل العقل مرتبطاً بالموضوع ذاته فلا يتشتت في كل تلك التفصيلات. والسورة تعالج مشكلة تأليه المسيح عيسى ابن مريم وترد على حجاج النصارى حوله؛ لتكشف لنا بعداً آخر من تعامل الإنسان مع الدين الذي ينتهي بتقديس البشر ورفعهم فوق مستوى البشرية، حتى تحذر الأمة الخاتمة من ذلك الطريق الخطير، فالموضع

بقدر ما هو خطاب للنصارى ولكنه درس لما يحدث للبشر في علاقتهم بالبشر، وكيف أن الناس ينتقلون من التقدير للتقديس ويختفي الحد الفاصل بين الإنسان وبين المقدس.

ولنترك السورة تتحدث عن نفسها.

الرحمة مفهوم مركزي

«بسم الله الرحمن الرحيم»، لم يكن لي أن أغادرها على الرغم من أنها هنا ليست جزءاً من السورة فلم يكتب مقابلها الرقم واحد كما هو في سورة الفاتحة بل جعل الرقم واحد مقترناً بـ ﴿الٓمٓ﴾ ولكن من الضروري التذكير الدائم بمعنى «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ إذ من الصعب فهم روح الإسلام وفكرته من غير فهم مطالبة القرآن أن نفتتح كل شيء بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» وللنظر قبلها للخيارات التي اتخذها البشر، غير «بسم الله الرحمن الرحيم».

بسمك اللَّهُمَّ والمنظور الجاهلي

العرب قبل الإسلام كانت تؤمن بالله الخالق ولكنها تعتقد أنه ترك مهمة العناية بخلقه للأصنام والكهان فلذلك كانوا يستخدمون «بسمك اللَّهُمَّ» اعترافاً بالخالق من جانب، وإنكاراً لعنايته بالكون وتدخله في تصريف شؤون البشر من جانب آخر، فالعناية بالكون مهمة الأصنام عند العربي في جاهليته، ومن هنا قالوا للرسول (ﷺ) في صلح الحديبية: «لا نعرف ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللَّهُمَّ»، وهو نصف

اعتراف، هو إيمان بإله خلق الكون ثم تخلّى عنه وتركه لغيره يديره.

باسم الصدفة

هناك من يؤمن بالصدفة التي أوجدت الكون، فكل شيء تم بسبب تطورات متتالية والتجربة والخطأ الذي لا تدبره يد راعية بل هي حركة عشوائية بدأت بغازات تجمعت في شكل كرة، ربما لا تزيد عن رأس دبوس، ثم انفجرت وتتابعت الحوادث داخلها فاتسعت وكوّنت هذا الكون كله، فالعين مثلاً هي عبارة عن تجارب عشوائية تمت عبر ملايين السنين لهذه المادة المتفاعلة من غير هدى، وأنتجت لنا هذا الجهاز المركب. وهكذا كل شيء في الوجود نشأ عن تلك الصدف.

تكافؤ الأدلة

وهناك من يؤمن بأن الأدلة متكافئة بين وجود الخالق وعدمه فيهزّ كتفيه ليقول: «لا أدري»، وهو موقف آخر من المسألة ذاتها، وقد أطلق عليهم قديماً «اللاأدرية»، وما زالوا موجودين. وهم قوم أشبه بمن يجلس على جدار بين حقلين لم يقرّر بعد ماذا سيختار وماذا سيرجح.

مفهوم البسملة ومعناها

والمؤمن بالقرآن يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم» فماذا يقصد بها؟ ذلك هو السؤال الكبير الذي يحتاج إلى تأمل؛ لأنه يعني كل شيء بالنسبة إلى روح الدين ومعناه.

فمشروع الأمة الجديدة قام على تغيير المنظور الشامل الذي مارسته الجاهلية إلى مفهوم جديد مرتكزه الصلب «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي تعني أن كل شيء بدأ بالخالق الواحد وهو الله، وهذا الخالق عنايته بالكون مستمرة وقوامها الرحمة التامة والواصلة إلى الخلق.

هي إذاً نقطة تحوّل من زاويتين:

زاوية الإيمان بالإله الذي اعتنى بخلقه فلا مجال للآلهة المصطنعة،

وزاوية مهمة الإنسان في تمثّل وتمثيل رحمة الله للخلق كل الخلق.

إن التحوّل المطلوب كبير، وهي قفزة نوعية في الوعي ولا تؤتي ثمارها إلا إذا وصلت إلى أعماق الوعي؛ لأنها إن لم تصل إلى هناك لا تتحول من فكرة إلى واقع متجسد، ولا يعود الإنسان يدرك وصف الرسول (ﷺ) بأنه رحمة للعالمين، ولا أن يدرك لماذا يردد في الفاتحة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، ولا يدرك مغزى سلامه على الناس «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» فهو، حين يغيب عنه معنى «بسم الله الرحمن الرحيم» يفقد أول اتصال له بالدين الحق الذي أراده الله في الأرض. ونظرة واحدة لما يدور حولنا في بلاد الإسلام من سلوك المسلم تجاه الموجودات من حوله تعكس غياب المفهوم أو ضموره أو تنحّيه في العقل المسلم، فما السلوك إلا تجلٍّ صريح لذلك الوعي ودرجة تجذّره في النفس والعقل.

والسؤال الكبير كيف تنتقل أي أمة من فضاء الأفكار

المجردة إلى الواقع الحي وكيف تتجسّد أي قيمة إلى واقع عملي؟

الناظر في حركة الأمم يجد أن القيم تنتقل عبر مراحل هي:

١ ـ إدراك أهمية المفهوم.

٢ ـ تحرير المفهوم فلسفياً بحيث تتّضح مقتضياته ويتمّ انتشاره جماهيرياً.

٣ ـ اتخاذه كمبدأ عام حاكم يتمّ التحاكم إليه.

٤ ـ تحويله إلى منظومة إجرائية قابلة للقياس تبدأ من الأسرة إلى المدرسة إلى الشارع إلى شتى نواحي الحياة.

٥ ـ وضع القوانين والتشريعات التي تكفل استمرارية وجوده في جميع جوانب الحياة.

فبين أن نكرر أن الإسلام دين الرحمة وبين أن يتحوّل ذلك إلى سلوك عملي مع كل المخلوقات مسافة شاسعة.

والسؤال الكبير: هل دخلنا بعد في المحطة الأولى من تلك الرحلة؟

تلك هي نقطة البدء في فهم روح الدين وعنوانه الكبير الذي إن غاب تبعثرت الصورة وانفرط العقد.

تمهيد السورة لموضوعها

الناظر في كتاب الله يلحظ مكونات كبرى تطبع سور القرآن يمكن إجمالها في:

١ ـ نسيج ضامّ يربط كل شيء بقضية الإيمان.

٢ ـ تأتي قضايا كلية تأسيسية متعلّقة بحقائق النفس الإنسانية وقوانين الاجتماع وتأتي القصص.

٣ ـ تتناثر أحداث متعلقة بيوميات الصراع الدائر بين معسكر الدين الجديد والمعسكرات المحيطة.

٤ ـ تأتي أحكام شرعية.

٥ ـ يأتي غرض السورة محاطاً بكل ذلك.

وتتنوع هذه المكونات وتزيد أو تنقص لتشكّل خرائط متنوعة في كل سورة، وفي هذه السورة سنبحث عن مزيجها ونتتبع تلك اللمسات المتتابعة التي توصلنا إلى قلب السورة، عبر تمهيد طويل يوصلنا إلى قصة المسيح، ثم تعقيب طويل لتختتم السورة بتقرير مذهل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، ثم بطلب الصبر والمصابرة والرباط، وبين المقدمة والقلب والخواتيم سنعبر إلى محطات كبرى نعرض فيها لتلك النفحات القرآنية، وهي تغوص عميقاً في واقع الجزيرة العربية لحظة الوحي، ثم ترسل أنوارها لعبور الزمان والمكان إلى عصرنا.

أبقِ الذهن منفتحاً

﴿الٓر﴾ [١]

إن العقل الذي لا ينتبه إلى أهمية السؤال سيعجز عن مواجهة متطلبات الدين وتحدّيات الواقع والجمع بينهما! والبشرية اليوم في سباق معرفي تبحث فيه عن إجابات لأسئلة الكون وأسئلة الإنسان والاجتماع، وكل الظواهر السياسية والاقتصادية والصحية والتعليمية والإعلامية والتنظيمية، هذا السباق هو ابن قدرة هذه المجتمعات على طرح الأسئلة الصعبة ومحاولة الإجابة عنها، وكلما أحسنت الإجابة عن سؤال تقدّمت صعوداً في آفاق المعرفة، فالمعرفة هي القوة في عصرنا والباقي تبع لها.

مرة أخرى تبدأ السورة بالحروف المقطعة ومرة أخرى يعود السؤال ماذا تعني؟ في كل مرة ستجد نفسك أمام تلك الشيفرة الكونية التي تستحثّك على التفكر من دون أن تغلق الباب على إجابة محددة، فقط تفكر... فكل شيء حولنا يدعونا إلى السؤال... يدعونا إلى مغادرة مقاعد الألفة وإعمال العقل. نحن في كون هائل وأرضنا لا تشكل فيه ذرة في فضاء واسع، ونحن على هذه الذرة الكونية نتحرّك ونفكّر ونريد أن نفهم العالم

ونستوعب معطياته. إن طموحات العقل البشري هائلة وموضوع قراءته وهو الكون غير محدّد الأبعاد، ولا يعلم منتهاه إلا خالقه وهو في محاولته لفهم الكون يتلقّى هذه الرسالة من الخالق فكيف سيتفاعل معها؟

كيف سيتدبر هذا الإنسان الكتاب الخاتم؟ وبأي شعور بالمسؤولية سيتلقاه؟ وكيف سيدرس آيات الله في ما نزل من الوحي وهو القرآن وفي ما أشار إليه الوحي من كون مبسوط يعرض نفسه على ذوي الألباب والمتفكرين؟ وكيف للبشر أن يتفكروا في ما تلقوا من معتقدات طال عليها الزمن، فأصبح قدمها دليلَ صحتها لا قوّتها الاستدلالية؟ والسؤال لكل البشر: هل يكفي القدم كدليل؟ فالناس مع طول الأمد في أي فكرة ومن كثرة تكرارها عليهم لا تعود محل المساءلة ولا النقاش، ومن هنا دخل الوهم على أهل الأديان، فكل ما أضيف إلى الدين عبر العصور اعتبر ديناً، ومع طول الأمد وسطوة القديم وتقديس الشخوص تفقد الأمة قدرة المراجعة والتفكر، وهذا ما حدث لليهودية والنصرانية، وليست الأمة الإسلامية محصّنة من الداء نفسه، فهل نتفكّر؟ انظر وتفكّر وسيدلّك الكون على خالقه؟

القيوم واحد

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [٢]

إن نقطة الانطلاق لفهم الكون وقراءته هي معرفة الخالق الذي أوجده ورعاه ومعرفة تفرده بالخلق بالعناية. لم يخلق الله الكون وتركه يمضي من دون عناية... ولم يكله إلى أصنام أو كهنة أو جنّ أو بشر يقومون عليه،... إن الله قائم بالكون معتنٍ به ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾... وذلك معنى عميق... حين يتخلّل النفس الإنسانية... فهو معنى يحرّر الإنسان من الوحشة في هذا الكون العملاق... ويحرره من الخوف حين يواجه تحدّيات الحياة... ويحرّره من النصّابين والدجّالين الذين يدّعون زوراً أنهم يمتلكون شيئاً من أمر الكون. الله حي وقيوم سلاح كبير عند امتلاكه يتخلّص الإنسان من الأوهام... لا يعود يبحث عن السند في الكهنة والعرّافين وأشباههم وهو حين يتحرّر من كلّ ذلك يبحث عن الإجابة في قدراته وطاقاته التي أودعها الله فيه وهو عندها يعتمد على تلك الثقة أن الله هيّأه لمواجهة متطلبات الحياة وصعابها. ومشكلة الإنسان وأزمته أنه يبحث في عالمه المحسوس عن شيء يتمسك به، وكل ما في الكون من محسوسات لا يقوم بنفسه بل هو مفتقر إلى الحي القيوم... كلها مخلوقات فانية

ولا تقوم على نفسها فكيف تُقيم غيرها أو ترعاه؟!

ننظر من حولنا فنجد من البشر من يعبد صنماً أو يبحث عن عرّاف أو كاهن يخبره عن الغيب، أو نجد من يبحث عند مشعوذ أو دجّال أو ساحر عن إجابة عن مرضه، أو ربما لعلاج سوء حظه، يحدث ذلك للمتعلّمين والعوام على حدّ سواء وهم يعتقدون أن هؤلاء لهم من الأمر شيء في هذا الكون، والقائم على أمر الكون يفتح لهم أبوابه: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. دعوا هؤلاء فهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً فمن يستجيب!

حين يدرك الإنسان أنّ قيوم السماوات والأرض واحد يعود إلى الله ويتعرّف إلى إنسانيته التي جوهرها قابلية التعلّم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وهي الخاصية التي سيتصل بها بالسماء، وسيعمر بها الأرض كما أراده الله، فحينها يستعيد عافيته ويتعرف إلى نفسه ويقوم بدوره.

إن فكرة الإله الواحد القائم بأمر خلقه هي محور مهمة الرسل وسبب إرسالهم، فالبشرية طالما جعلت مع الله آلهة أخرى، فعرب الجاهلية جعلوا من الأصنام شركاء لله في تدبيره وجعلوا الملائكة بنات الله بزعمهم، وبعض اليهود جعلوا عزيراً ابناً لله، والنصارى جعلوا عيسى ابن الله والقرآن يردّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ تلك هي أكبر الحقائق التي يعرفها الإنسان، فكلّ ما يدعيه من موجودات سواء أكانوا أصناماً أم كهّاناً أم بشراً ارتُقِي بهم إلى مستوى الألوهية كما فعل النصارى بابن مريم (عليه السلام) وكما يفعل البشر اليوم مع من يحبّون، كلها مفتقرة إلى الله ولا تقوم بنفسها، فكم حجم جريمة الإنسان عندما يساوي بين القيّوم والمخلوقات؟

ذنب من تنكَّر للحق عظيم

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [٣]

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [٤]

الرسالات تتنزل من مشكاة واحدة وموضوعها الرئيس التوحيد، وغرضها هداية البشر إلى المنهج الذي يريده الخالق لهم للفوز في الدنيا والنجاة في الآخرة.

هي دعوة إلى إصلاح الاعتقاد والاتجاه إلى الخالق بالعبادة وإلى التمسك بأمهات الأخلاق، والتنبيه على أمهات الكبائر والفواحش، وتوجيهات ومبادئ لإصلاح نظم الحياة واستقامتها.

والأديان في رحلتها تتعرض أصولها للتحريف بالزيادة والنقصان، ومن هنا نزلت آخر الديانات السماوية لتضع القول الفصل لمن أراد الحقيقة وأراد كلمات الله الخاتمة.

فالقرآن الذي أنزل على محمد (ﷺ) هو من جنس ما نزل على موسى وعيسى (عليهما السلام)، وآخر الرسالات كاشف عن صافي

الدين، ممّا عبثت به الأيدي على مرّ الأزمان، وهو محفوظ غير متروك للبشر حتى لا تعبث بأصله أيدي البشر كما فعلت بغيره من الرسالات.

إن أهل الكتاب يعرفون آيات الله ويعرفون مضمون الرسالات السماوية التي بين أيديهم ويرون دلائل صدق الرسالة الخاتمة، والقرآن يحذّرهم من التنكّر لما عرفوا من الحق ويشدّد عليهم في ذلك.

ليس الموضوع متعلّقاً بطالب الحق الذي أخطأه، فذلك مستمر في طلب الحقيقة وسيبلغها يوماً، ولكن الموضوع متعلق بمن استبانت له الحقيقة فغطّاها وكفر بها، ذلك له العذاب الشديد، والله مستغنٍ عن تصديقهم، وقادر على الانتقام منهم على جحودهم.

إن التحذير هنا شديد لدرجة مذهلة، ففكرة انتقام الخالق بعظمته من المخلوق فكرة تزلزل القلب، فكم هو حجم الذنب هنا؟؟؟

كم يذنب من يعرف الحقيقة ثم يكفر بها ويغطّيها ويتنكّر لها؟ ذلك هو السؤال الكبير الذي تتركه الآية في القلب، فكم تترك في السلوك من آثار في علاقة المؤمن من البشر بالحقيقة؟ وما هي آثار هذه المعرفة في التنشئة في البيت وفي المدرسة وفي الشارع وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع، وفي كل أوجه الحياة؟ كم درجة استيعابنا للمعنى وتفكّرنا فيه؟ ذلك ما بقي سؤالاً مؤرقاً في مقام هذه الآية.

السر والعلن مكشوف في علم الخالق

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [٥]

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٦]

الإنسان في عالمه الداخلي يحاور نفسه ويتحدّث إليها، وهو حين يعرف الحقيقة ويتنكّر لها يعرف ما يفعل ويبرر لنفسه ذلك السلوك، وهو قادر على أن يبدوَ متماسكاً أمام الخارج على الرغم من أنه في داخل نفسه خالف الحق الذي علم، إنه قادر على إخفاء حقيقته عن الناس فماذا عمن خلقه؟

... خلجات النفس البشرية مكشوفة... ما يدور في العقول مكشوف... فمن تنكّر للحق فهو لا يخفى على الله، إنه في متناول علم الله... هناك في ظلمات الأرحام؛ حيث يتخلّق الجنين طوراً من بعد طور في ذلك الظلام الدامس. تفعل الإرادة الإلهية فعلها، وفي كهوف النفس المنكِرة للخالق تطلع العناية الإلهية على خلجاتها، فالظلمة والخفاء لا تحجبان العلم الإلٰهي الشامل... هو وحده المطّلع على الأسرار وهو غالب على أمره، حكيم في تصريف شؤون خلقه... ها هو السؤال يعود

علي: ماذا أنت فاعل أمام هذا العلم المحيط؟ ماذا أنت فاعل وأنت صفحة مفتوحة أمام الخالق؟ في سرّك مكشوف وفي علنك؟

إن الرعب الذي يدخل القلب أمام هذا الانكشاف الكامل لا دواء له إلا معرفة صفات الله... الرحمة والحكمة، فهو مع هذا العلم التامّ أعلم بضعف البشر، وهو رحيم بهم لا يكلّفهم فوق ما يطيقون! ذلك ما قلته لنفسي قبل أن أمضي، فكم من نقائص وخطايا يرتكبها الإنسان مع وضوح حقيقة انكشافه لعلم الله، ولولا يقينه أنه مع علمه التام رحيم حكيم لما أمكن للإنسان أن يغمض له جفن وهو أعلم بذاته ونقائصه، والحديث متصل بجوهر القضية التي تعالجها السورة، وهي دعوى أن المسيح ابن الله، فأهل الكتاب الذين بلغتهم الدعوة وسمعوا البيان القرآني الله مطّلع على نفوسهم وخواطرهم، ويعلم منهم كل شاردة وواردة، وهم مخيّرون أن يصدّقوا الله في طلب الحق أو يخفوا الحقيقة، وفي الحالتين الله مطّلع عليهم.

ولكنّ النصّ يغوص عميقاً في داخل كل نفس، في علاقتها بالحقيقة وأوهامها بخصوصية الذات واستثنائيتها من قوانين المحاسبة. إنه نص تربوي لأمة جديدة مفاهيمها الكبرى تقول: إن الحقيقة مقدسة وإن المطّلع على السرائر هو الله، وإن دهاء الإنسان في الاختفاء عن الخلق لا يكفي لنجاته، فالرقيب قائم ومطلع، فهل لقي النص طريقه في الواقع وانتظم في مفاهيم الأمة الكبرى؟!

معرفة المحكمات قبل المتشابهات

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [٧]

النص القرآني يفهم في سياقاته ويفسّر بعضه بعضاً ويفهم في أنساقه، ويرد كل فرع منه إلى أصل كلي.

إنّ الرسول (ﷺ) يعلم من أنزل الكتاب ولكن القرآن يخاطب النفس النبوية وكل النفس الإنسانية، فذلك الخالق المطّلع على خلجات النفس، وما يدور في ظلمات كهوفها هو الذي أنزل الكتاب وفصله بمشيئته... أراد ألا يكون كله محكماً... بمعنى أن يكون بيِّن الفهم، واضح القصد والمراد، غير قابل لفهوم متعددة... ففي الكتاب المنزل يوجد النص واللفظ المحكم... ويوجد النص واللفظ المتشابه، ولكل منهما حكمته ووظيفته. وهنا ثار سؤال لم أستطع وقفه... كيف لكتاب هداية وبلاغ منزل من رب الأرباب أن يزيد من حيرة الإنسان وقابلية تشتّته؟.. ولماذا لا تتمّ المعجزة بأن يكون كلّه محكماً؟ وما هو ملجأ الإنسان البسيط الذي يتدبّر وهو يواجه ما

لا يفهم وما لا يعرف له مخرجاً..؟ ولماذا الراسخون في العلم هم فقط من يتمكّنون من الثبات في وجه هذه الأسئلة؟

كي لا نذهب بعيداً فالقرآن يواجهنا بآيات متنوّعة المستوى من حيث وضوح المراد: ١ ـ فهناك آيات يستحيل فك شيفرتها، كالتي بدأت بها السورة من حروف مقطعة وسؤال الروح أو سؤال الساعة ٢ ـ وهناك آيات يسهل على المتدبر العادي فك شيفرتها وفهمها فيسّرت لعموم البشر كقضايا التوحيد... فقوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: ١١٠] قول بيّن بذاته ٣ ـ وهناك نصوص تحتاج إلى اجتهاد وإعمال ذهن يستطيع فكّ شيفرتها من رسخت قدماه في العلم وفتح الله عليه... وهنا تتفاوت دقة الفهم بحسب مناهج البحث وقواعد العمل العلمي المنضبط ونور البصر والبصيرة.

الجواب عن ذلك كما بدا لي يقوم على ركيزتين:

الأولى: صلابة أوتاد الحجة الإيمانية واستقرارها في العقل.

الثاني: صلابة الوعي بكليات الدين قبل جزئياته.

صلابة أوتاد الحجة الإيمانية

والمقصود هنا صلابة نقطة الانطلاق وهي الإيمان بالله الواحد الأحد.

إن الإنسان يقف أمام خيارات متعدّدة في تفسير نشأة الكون، فحين ننظر إلى نظرية الانفجار الكبير وهي ما يتمّ تداوله اليوم عن نشأة الكون نجد عبارات مثل: نقطة البدء هي «الكون الأول» أو من يتكلّم عن غازات متكثّفة في كرة أصغر من رأس الإبرة توالت فيها الانفجارات فأخرجت هذا النظام الكوني الذي بدأ صغيراً وما زال يتّسع منذ أربعة عشر مليار سنة، هكذا يتمّ

التفسير. ولكن أياً ما كان مسمّى اللحظة الأولى فنحن في النهاية أمام سؤال واحد: من أوجد هذه الخميرة الأولى وأودع فيها كل تلك الممكنات؟

يرتاح البعض لفكرة الصدفة... فهناك ملايين الصدف التي عبر التجربة والخطأ أنشأت هذا الكون بنظامه. قلت: كم مليار صدفة نحتاج إليها لتنتظم لنا حركة العين لا الكون... إن فكرة الصدفة تتحدث عن تفاعل الموجودات لتنتظم ولكنها لا تجيب عن سؤال من أوجد الأصل الذي تم به التفاعل؟ هكذا عاد السؤال مرة أخرى من أوجدها؟

يرتاح البعض لمقولة: لا أدري، فأدلة وجود الخالق ليست حاسمة نظرياً، وبالتالي فالأفضل عدم الجزم والمضي في الحياة إلى أن يتم اليقين بطريقة لا تقبل الشك... ولم أرتح لهذا الخيار، فالكون من حولي مثير للتساؤل بعظيم نظامه، والكائنات من حولي مليئة بالمعجزات، وأنا بذاتي معجزة من تلك المعجزات، فكل ذرة في جسمي تعمل بطريقة معجزة وكل جهاز يعمل بمعجزة والتنسيق بينها هو أمر معجز.

عدت بعقلي إلى علم الكلام في تنسيقه لتلك الحقائق، فأياً كان هذا الكون الذي نحن فيه فنحن نجزم أنه حادث؛ أي: وجد بعد أن لم يكن موجوداً فتلك البيضة الكونية المليئة بالغازات على فرض صحة وجودها هي حادث يحتاج إلى موجد... ولكن هذا الموجد الأول لا بد من أن يكون مختلفاً عن الحوادث وإلا استمرت سلسلة الحوادث إلى ما لا نهاية، وهي مهما امتدت تنتهي إلى موجد مختلف عنها، موجد لا يحتاج إلى سابق وليس بحادث؛ أي: إنه أزلي أبدي.

قلت: نحن لا نملك إلا العقل أداة للفهم، فعلى فرض وجود هذا المحرك الأول فما الذي يمكن أن يعرفه العقل من صفاته؟

قلت:

«إن كان الكون عظيماً فموجده عظيم بما لا يقارن بمخلوقاته».

«إن كان هذا الكون يدل على علم فعلم خالقه أكبر بما لا يقارن بعلم مخلوقات».

«هو قادر بشاهد خلق هذا الكون العظيم».

«هو حكيم بشاهد أن كل شيء موجود لغاية وهدف».

هكذا انتظمت في الذهن صورة المقدّمات الكبرى وأصبحت عقيدة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤] مسطرة كبرى يردّ إليها كل ما يشتبه في مسار الإيمان بالله.

والعلم والحكمة مسطرة يردّ إليها كل أسئلة الإنسان التي تشتبه فيها الإجابات وتحار فيها الأفهام في مسائل تدبير الكون وتنظيمه.

فثبات الدليل على وجود الخالق الواحد والإيمان الجازم بصفات العلم والحكمة... هي ما يقود إلى الثبات في مواجهة الأسئلة الجزئية... ومن لم يثبت عنده هذان الأمران فمن السهولة أن ينحرف عنها ويزيغ؛ أي: يخرج عن الاستقامة، ومن السهل أن يجعل المتشابهات وسيلة لضرب المحكمات من أمهات الإيمان والمبادئ الكبرى التي بني عليها سائر النص، ومن خرج عن الإيمان بعدها بالكلية فلا غرابة أن يبتغي الفتنة ويسعى لإخراج الناس من الدين... هو لا يهتم أن يركن إلى

المحكم من قضايا الإيمان لأنها لم تستقر في نفسه... هو لن يكل ما يؤول إليه المعنى حين يشتبه عليه ويرجعه إلى حكمة الخالق التي يفترض أنه آمن بها ابتداء... بل سيبقى يدور حول النص الجزئي الذي ربما لا مخرج له في علم الإنسان.

والمؤمن لسان حاله يقول: إن المحكم والمتشابه كله من عند الله، وإن ما أثبته للرب جلّ وعلا من صفات واستيقنها عقله كافٍ في مواجهة الظن وعدم التأكد من المتشابه من النصوص، تلك هي المعادلة وذلك هو الطريق.

صلابة الوعي بمحكمات الدين أمان من المتشابهات

فالقرآن فيه الأصول الكبرى التي يرد إليها المتشابه، فأمهات العبادات وأمهات الأخلاق وأمهات المعاملات والنظم هي المسطرة الكبرى التي ترد إليها الجزئيات وتقاس عليها.

والآية تمس قضية السورة، فالنصارى يتمسكون بقول الله (ﷻ): ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] فعيسى هو كلمة الله فهو جزء من الخالق، وُجِد قبل مريم، وألقته الملائكة إليها من السماء فهو ابن الله، وهم يلجؤون إلى نصوص القرآن للتدليل على ذلك فهم يتركون المحكم من الآيات المنزهة لله عن أن يكون مشابهاً لخلقه والآيات التي تنفي عن عيسى صفة الألوهية وصفة النبوّة، ويتمسكون بالمتشابه منها ليثبتوا بها دعواهم... ذلك هو المنهج المعوجّ الذي تعالجه الآية هنا.

ولكن أبعاد الآية تمتد إلى فكرة كبرى متعلقة بالعلم وهي أن إتقان الأصول وأولويات أي علم مقدَّمة على معرفة جزئياته، وأن أساس الخلل في أي فهم هو عدم إتقان الأصول والمسارعة إلى معالجة الفروع.

معادلة الأمان من الزيغ

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [٨]

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [٩]

إن الأمان من الانحراف يبدأ بمعرفة الحق والتزامه وبمعرفة الأصول وإرجاع المتشابه لها عند الحيرة، والأمر **الأول** هو ابن مجاهدة الضمير، والأمر **الثاني** هو ابن التدقيق في المنهج.

أما طريق الزيغ فهو ابن إهمال الضمير وانحراف المنهج، وهو اختيار بشري صرف يعبّر عنه القرآن: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، هم اختاروا الزيغ ولم يبذلوا الوسع فعوقبوا بالزيغ وساء طريقاً، أما من بذلوا الوسع فهؤلاء يكافؤون بزيادة الهداية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، هي إذاً نتائج أعمال يقوم بها الإنسان، ولكن القرآن هنا يرشدنا إلى أن تحصيلها أيضاً ابن الدعاء، فالدعاء داخل في الأسباب، والآية دلتنا على أن الثبات على الهداية يحتاج إلى وعي وعمل واتصال بالله دائم.

فهي معادلة قوامها:

- مجاهدةُ الضميرِ طريقٌ للبحث عن الحقيقة والتزامها.
- والتدقيق في المنهج.

وكل ذلك يتم بالتفكر والصلة بالله والدعاء.

إن اختيار الإنسان هو ابن منهج تفكيره، وكل اختيار يقابله جزاء مناسب له... تلك معادلة الحياة الدنيا... ولكن كل ذلك يُكْشَفُ عنه الغطاء يوم القيامة وهو يوم الميعاد وله يستعد المجدون.

الفرعنة تعجز عن القضاء على الفكرة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًۭٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [١٠]

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [١١]

تعدّدت الجبهات على الدين الجديد: جبهة الشرك... وجبهة اليهود... وجبهة النصارى... كلها مشتبكة مع القادم الجديد حول موضوع الاعتقاد... والموضوع لم يكن في اعتراف الدين الجديد بحقّهم في الاختيار... فهو حق قد تكفله لهم من بدايات الدعوة ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، ولكن القوم كانوا يريدون وأد القادم الجديد... وهنا يبدأ الخطاب جازماً أن تلك المعركة ضدّ الدين الخاتم ستفشل، وأن مصير من يواجه هذا الدين ليَئِدَه هو مصير فرعون ومن سبقه من الأمم، كلهم يشتركون مع من حول الدين الجديد من المعادين في أنهم اعتقدوا أن قوّتهم في العدد والمال والعتاد كافية لوقف مسار الدين الحق لحظة تنزله... كل هؤلاء المعادين للدين لم يظلمهم خالقهم بل كانت الذنوب ذنوبهم وكان الجزاء من جنس العمل.

فالفرعنة سلوك وهي حالة من الاستعلاء بالباطل والاغترار بالقوة والمال وفقدان الصلة بحقائق الواقع المحيط، وهي بذل للأسباب لصرف الناس عن الحق والحقيقة... هي حالة يستنتج معها الطاغية أنه قادر بغناه على مغالبة الحق والحقيقة.

والغنى وكثرة العدد... حين لا يكون معهما تصور صحيح للآخرة... غالباً ما يولّدان الطغيان... ويتجاوزان الحق مع الخلق والخالق... والآية تجعل كل ذلك وقوداً للنار... وهي خطاب ذو اتجاهين: **الأول**، تقريري: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، **والثاني**، يضيف بعداً وصورة ذهنية لصورة المال وصورة الذات والأبناء والنار تستعر بهم، إنهم هم ذواتهم حطبها... فالقرآن هنا حوّل صورة حطب النار إلى أجساد أعزّ من لديهم، وهم الأبناء، فأي مشهد ذاك وإلى أي عمق يصل؟

وفي العمق نلمح عبر التاريخ أن الأفكار الكبرى التي تغيّر منظور الناس إلى الحياة كالأديان أو حركات التنوير الكبرى تلاقي العنت ذاته ومحاولات الاستئصال ولكن قصة التاريخ باستمرار تنتهي لانتصار الفكرة التي حان أوانها في اختراق العصر والوصول إلى البشر.

والقرآن هنا يقول للمشركين ومن معهم من أهل الكتاب أن محاولات وأد الدين الجديد وإثارة الشبهات حوله ستذهب هباء وأن الدين جاء ليبقى وينتشر.

نقطة اختراق الفكرة لواقعها

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [١٢]

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [١٣]

والأفكار حين تصطدم بالواقع تواجه عناداً من البيئة، ويواجه أصحابها حرباً قد تصل إلى فكرة الاستئصال، ولكن تأتي تلك اللحظة الحاسمة التي تزرع الفكرة في التربة!

وفي الآيات يأتي فيها الأمر للرسول بأن يُعلم مشركي الجزيرة ومن معهم بميلاد عصر قادم... ستغلبون... ستغلبون في الدنيا، وستكون عاقبة عنادكم مهاد النار، ستفترشون النار، ستكون لكم سكناً. ومحاولات وقف الدين بعد أن تحوّل من مرحلة مكة إلى المدينة، بدأ بمعركة بدر التي هي لحظة انكسار رأس شوكة قريش... ولذلك فمعركة بدر في القرآن لها شأن كبير، والآية السابقة تتحدّث عن غرور القوة بالمال والكثرة، وفي بدر كسرت المعادلة، وتغلّبت القلة على الكثرة، فمعايير

الفوز هنا اختلفت في عصر كانت الأسلحة فيه متشابهة ومركبة الحرب متشابهة... فلا تكنولوجيا متفوقة في الاتصال ولا كثافة نيران ولا طيران، كان الحساب للأرقام... كم عدد المقاتلين؟ وكم عدد الراكبين للمشاة؟ وفي هذه المعركة العدد ١ : ٢ من دون تدقيق شديد في الحسابات: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾، وبموازين ذلك الزمن تبدو المعركة محسومة لصالح الطرف الآخر... ولكن الطرف المؤمن انتصر والقرآن يجعل الأمر «آية»؛ أي: علامة ودليلاً يشير إلى مستقبل الصراع، فالكثرة التي جعلها الآخر مقياس القوة ومرتكز النصر... انهزمت...

قلت: ماذا بقي لي من تلك الأحداث؟ كيف يمكن قراءة حدث صغير بمقياس الكم؟ وهو لو قورن بالحروب الكبرى والأحداث الجسام كالحرب العالمية الأولى والثانية لَبَدا حدثاً عابراً... كيف أقام له القرآن كل هذا الحجم وأعطاه هذه الأهمية..؟

لو فكرنا ملياً في تلك اللحظة التاريخية لرأينا عصراً جديداً يولد وإعلان ميلاده يجب ألا يكون كبيراً ولكنه خط انكسار ولحظة فارقة... فكانت بدر... في الجزيرة العربية، لم تكن قريش مطمع أحد فهي القوة العظمى في الجزيرة وتجارتها تمتد بين الإمبراطوريات والممالك عبر رحلات وقوافل متصلة لا تنقطع صيفاً ولا شتاء، تؤمّن مسيرها بأحلاف مع قبائل شتى، هي حينها قلب الحالة الوثنية في الجزيرة، يقصدها الناس كل عام للحج والعمرة وكل شيء يبدو في صالحها وهي تواجه فئة قليلة، وهذه الفئة القليلة لم تكن خرجت لقتال بهذا الحجم،

فقد كان خروج النبي (ﷺ) ومن معه لمواجهة قافلة تجارية لا لمواجهة جيش مقاتل والتقى الفريقان وانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكبيرة المستعدة، انكسر شعور القرشيين بالاستعلاء، وأعلن ميلاد قوة جديدة... ولكن القوة الجديدة لم تكن قوة عسكرية فقط وإنما كانت قوة بيدها كتاب: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤] إنه ميلاد دين وإعلان عن حضوره في وجه البطش... لقد انفتحت إمكانات المستقبل... لم تعد الجزيرة أسيرة النموذج القرشي، ولم يعد القديم مزهواً بنفسه كما كان قبل الحدث، لقد أصيب في الصميم...أصيبت نفسيته بالتصدع... وسيستمر الشرخ في الاتساع... لن يوقفه شيء بعدها... تلك هي بدر في خط زمنها... وهي في خط التاريخ قابلة للعبور والاعتبار... فميلاد الأفكار وورودها على مجتمع الركود لا يمر بسهولة، هو محصلة صراع مرير ولكن باستمرار هناك نقطة اختراق الفكرة لواقعها... اختراقاً يزرعها في التربة بحيث يصعب اقتلاعها بعدها، وتلك كانت بدر في التاريخ.

والرسالة واضحة لجميع الفرقاء حينها أن أكبر قوة في الجزيرة هزمت، وأن الفكرة تجاوزت مرحلة الإبادة... هكذا اخترقت الفكرة واقعها.

الأفكار الكبرى والنفوس العظيمة

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [١٤]

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [١٥]

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [١٦]

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [١٧]

والأفكار الكبرى تحتاج إلى استعدادات نفسية عظيمة، وهنا يشير القرآن إلى تلك العقبات التي يواجهها الداعين إلى الحق من دواخل نفوسهم بعد أن حدثنا عن تلك المواجهة التي تتم مع الخارج. هي معركة مع أطايب الدنيا وهي مبادلة تتم بين الدعوة إلى الحق وتحصيل المنافع التي يجملها القرآن:

• **شهوة النساء**

...النساء: لما في ذلك من قضاء الشهوة وشراكة العيش والمودة والرحمة...

• **شهوة الجاه**

البنين: لما في ذلك من قوة وجاه بالكثرة.

• **شهوة المال**

القناطير المقنطرة من الذهب والفضة.

• **شهوة السطوة**

الخيل المسومة؛ أي: وُضعت عليها علامات مالكها أو ربما تركت للرعي حرة لكثرتها.

• **شهوة الرزق والمطعم**

الأنعام من البقر والغنم.

• **شهوة الاستمتاع بالجمال والثمار**

الحرث؛ أي: المزارع.

فتعلّق النفس بكل ذلك مشهود ومعلوم، ولكن من حمل همّ الحقّ والحقيقة فيجب أن يوطّن النفس على أن يجعل كل ذلك في يده، لا في قلبه، وأن يعرف أنه يستبدل ما هو فانٍ بالباقي الأبدي، فكل ما في الدنيا يخاف الإنسان زواله، وفي الآخرة كل أمر لا يخاف زواله ولا نهايته، فيها نعيم وخلود في النعيم ومتعة نقية من عوارض البشر، فمتاع الدنيا تعتريه مكدّراتها السمعية والبصرية واللمسية والذوقية وسائر الحواس ويعتريه خوف مفارقتها... وحتى المؤمن في الدنيا فهو يرجو رضى الله،

وهو خائف من عقابه لا يدري بما ينتهي به المطاف... أما في الآخرة فرضاه قائم لا يحوّل.

ومن أراد الآخرة فهو عامل بخمس خلال:

١ ـ الإيمان.

٢ ـ الصبر.

٣ ـ الصدق.

٤ ـ القنوت.

٥ ـ الاستغفار بالأسحار.

الإيمان والصبر والصدق والعبادة

الإيمان هنا التصديق وضده التكذيب... الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر... وبالقضية التي ترتبط بكل هذه المنظومة؛ أي: بالرؤية الكونية والمطالب العملية المترتبة على هذه المنظومة، وكل هذه القضايا هي قضايا عقلية ولكن مصاديقها في الخارج هي ما يمكن رصده، وهو تفاعل الإنسان مع تحديات الواقع الذي يقدّم نفسه في شكل منح ومحن، فكيف يستجيب الإنسان وكيف يحافظ على توازنه في ضوء مغريات الواقع وفي ظل ضغوطه، من هنا تظهر قوة الإيمان أو ضعفه ومن هنا تبرز الحاجة إلى الصبر وهو توطين النفس على تحمّل المشاقّ، فكل شيء قد يحدث من تهديد الأرزاق إلى تهديد المعنويات إلى تهديد الأرواح، ولكن ما علاقة الصدق بكل ذلك؟

الصدق هو قول الحق، فهو صدق مع الله والنفس والآخرين، والنفس الإنسانية غريبة الأطوار، قابلة لأن تسوّغ لنفسها ما لا يستساغ، وأن تجد مبرراتها لأشنع الأفعال، فهي مجبولة على الجدل. والالتزام بالصدق هو في جوهره كشف لذلك المسار ومواجهة له، نظرة واحدة إلى مشاهد العنف التي ترتكبها الطوائف الدينية عبر التاريخ من ظلم للمخالفين باسم الله، تكشف لنا عن آلية التبرير والتسويغ وما تستطيع أن تفعله بالعقل الإنساني، فالتزام الصدق مع الله والنفس والخلق ليس بالأمر الهين، فهو يحتاج إلى مجاهدة النفس والتوغّل فيها، والكشف عن تلبيساتها، ذلك التأمل العميق الذي يطلق عليه القرآن القنوت، فهو خشوع وقيام وصمت ودعاء، واستحضار لعظمة الله ووقوف على بابه في كل وقت، والاقتراب منه والاختلاء به في هدأة الليل، وإعمال للعقل في ملكوت الله والتوبة والاستغفار.

هي معركة داخلية بامتياز، معركة في العقل تنتهي بالانتصار لفكرة الإيمان، ومعركة مع دواخل النفس لضبطها بأوتاد الصبر، ومعركة مع العقل والقلب للتحقق بالصدق، ومعركة في الصلة بالله قوامها التفكر والدعاء.. .تلك هي متطلبات النجاح الكبرى في الفوز بمعركة الخارج كما يرسمها القرآن.

أولو العلم يشهدون بالوحدانية

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [١٨]

كلمة «شَهِدَ» تحمل في مضمونها العلم والبيان... فالشاهد عالم ومُبَيِّن... فالله والملائكة وأولو العلم يشهدون لله بالوحدانية ويشهدون له بالعدل، وبأنه قادر مستغنٍ يضع كلَّ شيء في مكانه، فكل تصرف يتمّ لحكمة ولمصلحة، فخلق الإنسان وإعطاؤه حق الاختيار، وإرسال الرسل والبشارة والنذارة والتدافع بين الخير والشر، كل ذلك يتمّ لحكمة أرادها الله.

ولكن هنا أضاف الله أولي العلم كشهود له بالوحدانية، للعلم معنى كبير في القرآن مادته العلوم الإنسانية (كالفن والموسيقى والأدب والدين والتاريخ والفلسفة)، والعلوم التطبيقية (كالفيزياء والفلك والكيمياء والطب والهندسة). فكيف توصّل العلوم الإنسان إلى معنى «الوحدانية»؟ هذا هو السؤال الكبير الذي نحتاج إلى أن نتأمله.

الكون كله مترابط في سلسلة من الأسباب التي تحيّر العقول، والإنسان لا يفهم الكون إلا في هذا الترابط السببي،

وهو في بحث مستمر عن نشأة الكون؛ فكل شيء فيه يعود إلى العناصر الأولية ذاتها، ونظام الأسباب يدعو الإنسان إلى أن يسأل كيف نتج من هذه الأسباب الأولية أو المادة هذا الكون الحي المعقد؟ وعقل الإنسان يقوده إلى سؤال كبير آخر: «من أوجدها؟» فهي لم تُوجِد نفسها، ومن نظّمها؟ حيث تترابط في سلسلة كلية. وهذه المادة الأولية إما أنها أنتجت نفسها ونظّمتها، وهذا بعيد عقلاً وإما أنها نتجت من صانع أوجدها ونظّمها، ولا تحكمه القوانين ذاتها التي تحكمها.

ونحن نعلم بعلمنا القاصر أن الكون من الذرة إلى المجرة يسير في نظام واحد، ولو تعدّد صنّاعه واختلفت إراداتهم لاضطرب نظام الكون، ولو توحّدت إرادتهم في كل هذه التفصيلات فهم واحد غير متعدد، والكون شاهد على تلك الواحدية التي تعطيه معناه وقابليته للدراسة من قبل الإنسان، ففكرة القوانين على صغر ما نعرفه منها تقول لنا عن عالم الانتظام، وتقودنا إلى فكرة الخالق الواحد ويبقى الإنسان قادراً على الجدل باستمرار حول كل تلك النقاط ولكنه سيعود إلى تلك العناصر الأولية التي لا بد لها من موجد، فكل شيء يقود إلى تلك النقطة عند التأمل... ومن غير العلماء يتفكّر في هذا الكون وآياته ويغوص عميقاً في أسراره، ويزيل عن عقله وقلبه تلك الغلفة الناتجة من ألفة مشاهدة الموجودات، ومن غيرهم يقر بشواهد الوحدانية في وجه دعاوى الشراكة والولد، تلك هي قضية القضايا ...الله واحد أحد.

الدين عند الله

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [١٩]

طرح الإسلام نفسه باعتباره التمثيل الكامل للإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعاً منذ آدم حتى خاتم الرسل محمد (ﷺ). وقوام الإسلام ثلاثة أشياء: «من آمن... بالله... واليوم الآخر... وعمل صالحاً...» ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] والكتب السماوية تتنزل لتصحيح مسيرة المسلمين عبر التاريخ، فيصدق بعضها بعضاً ويتمم بعضها بعضاً، وهي في جوهرها تدور حول ربط النجاة في الآخرة بالصلاح في الدنيا. ولسائل أن يسأل: إن طبيعة الإيمان بالدين تأخذ بعداً عاطفياً متجذراً، وبعداً ثقافياً واجتماعياً ومؤسسياً يصعب الانفكاك منه على غالب البشر، فالانتقال من دين إلى آخر ليس بالأمر الهيّن لجملة العوامل المذكورة... والإيمان يتحوّل مع الزمن إلى حالة عاطفية توظّف العقل لتبريرها، فكيف لأهل اليهودية أن يتركوا دينهم لينظّموا المسيحية، وكيف لليهودية والمسيحية أن تنظما الدين في نسخته

الجديدة... وفي قلب الأديان مسألة الاعتقاد بالصواب المطلق. وحين نعلم بأن الأديان التي لم يحفظ نصّها. وعبثت به الأيدي لا نكاد نجد نصاً صريحاً يقبله أهل تلك الملة يدعوهم إلى الإيمان بدين غير دينهم... يزداد تعقيد الموقف وتركيب الصورة أمام فهم مدلول الآية ووجه الخطاب فيها... فأي علم أتاهم؟ وأي نوع من البغي وتجاوز العدل أصابهم؟

والبغي كما تفيدنا المعاجم هو الانحراف عن السواء والتجاوز في الحقوق والاستطالة على الغير... فما هو القدر من العلم الذي هو بيِّن بذاته ويقوم دليلاً عند أهل الكتب السماوية، بحيث يصدق بعضها بعضاً؟ أهو التوحيد الخالص أم هو مكارم الأخلاق؟ أهو وصية السابق باللاحق هي معايير التحقّق من صدق الرسول الجديد وسيرته؟ أهي المعجزة التي يأتي بها أم هي معجزات الكون التي تدلّ على الواحد المتفرد؟

كل ذلك وارد ومن هنا يأتي التحذير... ومن يكفر بآيات الله؛ أي: العلامات والمعجزات والبينات الدالة على الصدق متى استبانت له فإن الله سريع الحساب.

الدين بلاغ والله بصير بالعباد

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [٢٠]

هنا حقيقة كبرى من حقائق الدين يمر عليها الإنسان الغافل من دون وعي بعمقها ودلالتها...

فإنما عليك البلاغ... والله بصير بالعباد... فالجدل يطول والحوارات لا تتوقف... أهل الكتاب من جانب ومشركو الجزيرة من جانب، هو حجاج ممتد... هم يجادلون في الوحي وفي القرآن وفي مسائل العقائد وفي صدق الرسول (ﷺ) والرسالة... لم يقل لهم القرآن: أنتم لستم مؤهلين للجدل، أنتم لستم من أهل الاختصاص... هم أميون كالعرب... وهم أهل كتاب، بعضهم أمي وبعضهم قارئ... ولكن الدين ليس طلاسم لا يفقهها إلا القلة، هو بلاغ وبيان للناس وهو يخاطب أمّيهم قبل متعلّمهم وتترك له حرية السؤال والاعتراض... ففي نهاية المطاف ما على الرسول إلا البلاغ، والله بصير بالعباد... عالم بهم... مطلع على أحوالهم.

ولكن لماذا هذا التأكيد... فإنما عليك البلاغ؛ لأن عقولاً ما في وقت ما ستنصرف إلى بلاغ فكرة الهيمنة، والسلطة ستعتقد أن مهمتها قهر الناس على الدين وأنها بصيرة بخفايا الضمائر ومصائر العباد والله يحدّد للرسل مهمتهم... ويعلن مسؤوليته عن السرائر والمصير.

سيعلن أناس أنهم لن يتركوا الأمر لله، ولكنهم سيأخذون الأمر بأيديهم، لن يعود الأمر: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ بل ستدور في بالهم فكرة السيطرة والتحكم في الخلق، سيقولون بنسخ كل هذه الآيات العظيمة بآية السيف، ولن يعود الدين بعدها بلاغاً بل سيصبح بسبب تلك الأفهام سيفاً مسلطاً على الرقاب، ومن هنا جاءت صيغة الجزم والوضوح: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ تلك هي حقيقة الدين وروحه التي غيبتها تراكمات العصور.

أما الحديث مع أهل الكتاب وحجاجهم فأقصى ما يؤمر الرسول (ﷺ) أن يقوله لهم: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ وأما من أعرض فالله بصير به فلا جبر ولا قهر.

الآمرون بالقسط من الناس والدور المرتقب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [٢١]

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [٢٢]

هناك الفكر عندما يواجه بالفكر، وهناك الفكر عندما يواجه بالقمع والقتل، منطقان مختلفان ومجتمعات الركود تواجه دعوات الإصلاح سواء من الأنبياء أو من دعاة العدل والقسط بين الناس بكل أنواع العنف، والآية تخبرنا بوجود الذين يأمرون بالقسط من الناس.

فدعاة العدل بين الناس يأتون من كل المجتمعات كافرها ومسلمها والبشرية تحلم بحلف فضول كبير يعيد الحق إلى كل مظلوم.

إننا حين ننظر في تاريخ الإنسان نجد كثيراً من البشر قبل الرسالات وبعدها رزقوا الضمير الحي للدعوة للبر والقسط بين بني البشر، وتلك إشارة كبرى إلى منطقة من أهم مناطق الالتقاء

بين البشر على مختلف مكوناتهم وأديانهم وهي متممة ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠] فهؤلاء البشر المختلفون ما الذي يمكن أن يقيم العلاقة بينهم غير التوافق على قواعد البر والعدل التي هي الميزان الذي قامت به السماوات والأرض وهو يمنع الفساد وسفك الدماء، ها نحن نضع أيدينا على الشرط الأكبر للإعمار ووقف سفك الدماء ووقف الفساد فماذا نحن فاعلون به؟

إن مسطرة العدل بين البشر مفقودة وما نراه من إفساد في الأرض ومن سفك الدماء ومن انتشار الفقر والجهل والرمض والحروب لهو مؤشر على ما ينتظر الإنسانية إن لم ترتقِ بميزان العدل وتوجِد فضاء جديداً للتعايش بعيداً عن أوهام الخصوصية والاستعلاء وعن أوهام التنميط والاستيلاء.

دعوى من دون دليل

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [٢٣]

القرآن يتكلم عن قوم بأعينهم في لحظة زمنية وفي لحظة الخنادق المتداخلة في المدينة، واليهود يأتون الرسول (ﷺ) ويأتيهم... وعندهم التوراة... والرسول في قيادة المدينة ويعلم بما في كتبهم بما علّمه الله... وهم يتقاضون له... وحين يحيلهم إلى ما في كتبهم... كانوا يصدّون ويرفضون...وكم في عصرنا من بشر يدّعون التزامهم بمبدأ ما وبنظام ما ولكن حين يُردون إليه يُعرضون ويستكبرون. فدعوى الإيمان بمرجعية ما لا تكفي وحدها، ولكن السؤال عن مصاديق الالتزام بهذه المرجعية في الحياة، والعودة إليها عند الاختلاف هو ما يعكس الصدق في الدعوى...

تلك ليست مشكلة هؤلاء القوم، ولكنها مشكلة الإنسان في كل عصر. هي شهوات النفوس والمصالح التي تجعل الإنسان يلتزم حيناً إن رأى ما يتفق مع مصالحه الضيقة ويعرض عندما لا تتحقق مصالحه. ولئن كان الموضوع هنا متعلقاً بأهل الأديان،

فالحالة قابلة للتكرار بين بني الإنسان في كل عصر... وليست قاصرة على بني إسرائيل، فحين يُذَكَّرُ بعضٌ بقيم العدل والحرية والمساواة الإنسانية التي يفيض بها كتاب الله... ويجد أن مصالحه لا تتمّ بها، سرعان ما يعرض ويولّي مدبراً كأنّه لا يعلن إيمانه في اليوم خمس مرات، إنه يؤمن في الحقيقة بمصالحه... تلك لفتة عن حقائق تطبع النفس البشرية وإن كان النص هنا يتكلم عن أهل الكتاب.

وَهمُ الخصوصية

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [٢٤]

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [٢٥]

ها هو القرآن يعلل سبب تلك الآفة... وعلّة ذلك المرض... علة الاحتجاج بالإيمان من جهة ومخالفته في السلوك من جهة أخرى... إنه فكرة عميقة تسكن في تلك الكهوف العميقة في تلافيف العقل... شعور بالأمان من المستقبل، فكرة تقول: «إن صحّ أننا سنعاقب بالنار فذلك لزمن قصير فنحن من نسل أناس أنبياء... وهل يعاقب نسل الأنبياء بالخلود في النار... إنه الاغترار بالجينات... والجهل بعدل السماء التي لا تربطها الجينات بالأرض، فليس بين الله والإنسان صهر ولا نسب... إن الوحي يتنزل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] تلك مقولات القرآن مصدّقة لما في كتب السماء... وليس في كتب السماء ما يدعو إلى مثل هذا

التصور وإلى مثل هذه الاستثناءات، فمن أين أتت هذه التصورات؟

القرآن يجيب ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فما قصة الغرور بالدين؟ الغرور هو خداع بالباطل، فأهل الأديان تتضخم عندهم الأنا ويتضخم الشعور بالاختلاف والشعور بأن لهم معاملة خاصة عند الله، إما باختلاق نص أو بتفسير نص على غير وجهه، والقرآن هنا يضع القانون الكلي ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ إن وعي الإنسان بهذا القانون الكلي يجعله على حذر من دعاوى الخصوصية والاستثناء وأن يبقي معدلات الحذر من الله مرتفعة، فهو سيحشر مع الخلق وسيجازى بحسب عمله ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ تلك هي القصة التي يغفل عنها كثير من الخلق».

سنن الصعود والهبوط

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٦]

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٢٧]

إذا لم يكن للبشر خصوصية تجعلهم فوق سنن الكون ولا أفضلية جينية تجعلهم فوق البشر كما تقرر قبلها فالملك وتداول السلطة أمران إلٰهيان يتمان وفق قوانين وسنن... وقد سبق الحديث عن مبدأ العدل والقسط... فنزع الملك أو قيامه خاضع لهذا القانون الكوني... فلا شيء يتمّ اعتباطاً ولا يمكن فهم القرآن مجزأً...إن للقهر والغلبة سننهما في قوانين القوة... وللضعف والذلة قوانينهما في كتاب الله... وكل وضعية ضعف تقابلها سنن الصعود، وكل وضعية قوة تقابلها سنن الهبوط... إن كل شيء في الكون مقدّر ليس على طريقة الدراويش الذين لا يرون حكمة ولا قانوناً...ولكن بنظرة فاحصة للقرآن نرى قوانين الله وكيف تعمل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. . فقط حين نجمع نصوص القرآن إلى بعضها يتجلّى لنا المعنى العميق لقوانين الصعود والهبوط.

نظرة واحدة إلى قانون جامع يلخّص تلك القضايا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] فكل سوء في الإيمان مروراً بالعبادة والأخلاق العامة والخاصة ونظم العمران من السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم والإعلام والصحة والتجارة والصناعة والزراعة له ما يقابله من قصور لو تراكم يودي بالمجتمع إلى الزوال.

الوصل والقطع بين البشر

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [٢٨]

هنا حارت النفس فماذا تعني القطيعة مع الآخر غير المسلم؟ وأي عالم إنساني يتشكل؟ أليس الإذن قد ورد بالزواج من المحصنات من أهل الكتاب، وبذلك تقام صلة الرحم من جدّ وجدّة وأخوال وأنساب؟ وكيف تكون القطيعة بين الأبناء وأمهاتهم وأخوالهم وأنسابهم؟.. ثم ألم يؤمر الإنسان بالبر بالوالدين وهما على شركهما ورغبتهما في عودة أبنائهم عن دينهم؟ ثم أين قصص البر بأهل الكتاب وبغيرهم، بل بالحيوان والجماد؟ أم أن هذه حالة خاصة تستدعي استقصاء لفهمها قبل القفز إلى استنتاجات؟

وبنظرة واحدة: إلى التفسير بالمأثور سنجد أن الآيات يشرح بعضها بعضاً... هي تتحدث عن دائرة الحرب الدائرة بين معسكر الإيمان الوليد في المدينة والقوى المتربصة به من المنافقين واليهود المعادين حينها، وأن بعض القوم كانوا يسرون

لهؤلاء بالمودة من دون المؤمنين؛ أي: إنهم يصارحونهم بالحب وينقلون إليهم أخبار المعسكر المسلم، ولا يبعد أن يفعل بعضهم ذلك بحسن نية بحكم القرب المكاني والعشرة والقرابات والمصالح التجارية... والمؤمنون حينها تحت تهديد وجود وتحيط بالرسالة الجديدة مخاطر جمة.

فالولاء هنا هو محبة ونصرة يشكل خطراً وتهديداً وجودياً للمجتمع المسلم... إنه ليس شكلاً لعلاقات السلم ومقتضياتها ولكن لعلاقات الحرب ومقتضياتها... ولذلك فالحالة اقتضت خطاباً متنوعاً سنلتقي به كثيراً في القرآن الكريم بسبب انتشار الظاهرة حينها بسبب الخنادق المتداخلة بين المعسكرات... فماذا بقي لنا من النص في عصرنا؟

إن التمييز بين دائرة الحرب ومقتضياتها ودائرة السلم ومقتضياتها من أخطر قضايا الحياة، ففي السلم البر والقسط والتواصل بأرقى أنواع العلاقات الإنسانية ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وفي الحرب الحذر وتمايز المعسكرات. تلك هي المعادلة التي يغفل عنها بعض فيسقط آيات الحرب على حالات السلم الواسعة التي هي الأصل بين بني البشر.

قلب سليم وعمل صحيح

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٩]

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [٣٠]

إن الإنسان يقف أمام ذلك العلم الإلهي الكاشف مذهولاً، فكل ما يدور ويتلجلج في صدره، وكل ما يقوم به من سلوكيات وأعمال يتم تسجيله وسيجده أمامه فماذا هو فاعل... والناس تجاه هذه الحقيقة أصناف: فهناك من يراقب الله في كلّ عمل، وهناك من يفعل ما يشاء ويتمنّى على الله الأماني، وهناك من يخطئ ويتوب ويكرر الخطأ والاستغفار فهو في صراع دائم مع النفس وشهواتها... وهي الكثرة الكاثرة من المؤمنين... بشر من البشر يرتفعون ويهبطون... هم أشبه بركاب طائرة ضميرها محركها الآلي كلما حرفتها الرياح عن مسارها أعادها محركها إلى الصراط المستقيم، فلا تكاد تستقر حتى تصطدم برياح الأخرى فتبعد قليلاً أو كثيراً عن المسار لتعود إليه ثانية...

وتختم الآية بأعظم بشارة ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾، ذلك هو الملجأ، فالإنسان في كفاحه إن استقام عُرضة لكل عوامل القصور ولكنه في المقابل أمام رب رؤوف يعلم بضعفه ويعلم بنواياه ويعينه إن أراد طريق الخير.

حب الرسول ومعنى اتباعه

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣١]

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٣٢]

وكفاح الإنسان في وجهته إلى الله يحتاج إلى بوصلة هادية ومَن غير المصطفى (ﷺ) دليل إلى الخير؛ ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ جَرْس الكلمات ساحر فطريق الجنة هو طريق الحب وكيف يكسب المرء رضى محبوبه... كيف لنا أن نعرف خارطة الطريق إلى الله عملياً؟... كيف نعرف صراط الذين أنعم الله عليهم؟

عرض القرآن علينا صوراً لا حصر لها لأعمال الصالحين ولكفاح الأديان وعلق القلب بحب المصطفى (ﷺ) ولكن أي نوع من الحب هو؟ أهو ذلك الحب الساكن الذي لا يدفع إلى عمل وكل الدين مطالبة بعمل! أم هو ذلك الحب المتحرك للمهام العظيمة التي تصدّى لها الرسول (ﷺ)؟ إن اتباع الرسول قضية كبيرة هي تعني خارطة كاملة للأولويات وتمييز شديد بين الكليات والجزئيات، هي تصور عن اتباع في الغايات

والأهداف، والأولويات، والسلوك، والحكمة، والرحمة. وهي مشروع فهم واسع لأعظم شخصية وجدت على ظهر الأرض. ولكن في أي زاوية من الاتباع يركز العقل المسلم اليوم؟ وعلى أيّهما يركز الشكل أم الجوهر؟

إن الاتباع بالمعنى الحقيقي سيعني تحقيق مراد الله من الإنسان في الأرض بإعطاء النموذج في الحق والعدل والمساواة والنظام والسياسة والاقتصاد والاجتماع وفي النظم الفردية والجماعية وفي سلوكيات الأفراد... فهل يستقبل العقل المسلم كل ذلك بوعي أم يعيش في هوامش كل تلك القضايا؟

قصة آل عمران

الاشتباك مع نصارى نجران كان هو الأبرز في حوارات تلك الفترة، والحديث سيدور معهم حول روايتهم التاريخية عن المسيح (عليه السلام) ولا يحتاج المرء إلى أن يتخيل الحديث مع قوم في أمر هم أعلم الناس به ولكن المتحدث هنا هو الله.

الاصطفاء

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٣٣]

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣٤]

الاصطفاء اختيار من متعدد وهو يبنى على معايير، والله اختار سيدنا آدم ليكون أول البشر. وكان هناك أهل السماء من الملائكة وإبليس معهم... واختار نوحاً من ذرية آدم لتبليغ رسالته لقومه... ثم جاء سيدنا إبراهيم وأهل بيته ثم جاء عمران وأهل بيته... والقرآن لا يذكر لنا من هو عمران... ونحن لن نقف مع الإسرائيليات لنعرف الاسم... بل سننطلق مع القرآن كما جاءنا لنعرف المراد، ولنرى هذه الذرية التي بعضها من

بعض في الصلاح والتقوى، فاستحقت الإمامة والتي قال الله لإبراهيم حين طلبها في ذريته من بعده ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، فهي مقصورة على أهل الصلاح والعدل فما هي تلك الأسرار العميقة وراء الاصطفاء والله سميع عليم لما كان يجري في بيت عمران وآله وأهّلهم لاصطفاء السماء؟

بيئة صالحة

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [٣٥]

ها هنا سيدة فاضلة هي زوج عمران حامل تخاطب ربها بأن ما في بطنها محرر من خدمتها ليقوم بخدمة البيت المقدس ولعبادة الله. . . فالبيت مسكون بالإيمان ومتجه لفعل العبادة وخدمة المقدس. . . وهي تنتظر مولوداً ذكراً، والذكورة مظنّة الجلد والقوة للقيام بالخدمة كما اعتقدت.

ويمكننا أن نتخيل تلك الأسرة اليهودية التي تعيش في بيئة متدينة حول بيت المقدس، وربما لا تختلف كثيراً عن طريقة عيش الأسر اليهودية المتدينة التي تشمل الصلوات اليومية التي تُتلى ثلاث مرات في اليوم: في الصباح وبعد الظهر وبعد غروب الشمس. أما صلوات الرعية فتقام في الكنيس وهو دار العبادة والدراسة اليهودية في أيام الإثنين والخميس والسبت، أيام الاحتفالات والأعياد اليهودية. وهي تشمل الصلاة في الكنيس وقراءات بالعبرية من التوراة وأسفار الأنبياء.

ومن الواضح في قصة عيسى (عليه السلام) أن تلك الأسرة كانت

مختلفة من حيث صدق التوجه إلى الله، فبيئة الصلاح مظنّة الخير والفلاح وإن كان ذلك ليس مضموناً كما نعرف من قصة نوح (عليه السلام) مع ابنه، أو يعقوب (عليه السلام) مع ولده فالحياة فيها مؤثرات كثيرة من التركيبة النفسية والظروف الانفعالية للأفراد ومؤثرات المجتمع والمحيط.

المعجزات والكرامات

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [٣٦]

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٣٧]

كانت المرأة الصالحة زوج عمران تتوقع ولداً ليقوم بخدمة البيت، فالولد مظنّة الجَلَد، فولدت أنثى وذلك تصور البشر، أما المشيئة الإلهية فقد اختارت الأنثى للقيام بالمهمة خلاف ما يبدو أن البيئة تعتمده من معايير.

يسر الله أمر مريم كله وأسعدها بطاعته فنمت في أحسن خلقة ووضعها في كفالة رجل صالح هو زكريا الذي رأى بركاتها وكيف يُرسل الله لها الطعام كرامة وفضلاً.

ها هنا تفصيل صغير متعلق بتلك الخوارق التي تحيط بمريم، فهو عصر عجيب من حيث طبيعته. لقد كانت السماء منفتحة على الأرض بشكل مذهل.

والعقل يعجب من تلك البيئة، فمريم بهذا المعنى كانت ترى الخوارق باستمرار فكيف كانت تنظر إلى عالم الأسباب. هذا ما ننتظر أن نعرفه في القصة؟

بين الخوارق وعالم الأسباب

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [٣٨]

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [٣٩]

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [٤٠]

إن عالم الأسباب هو أساس الكون وهو ما يقوم عليه عمل الإنسان، فالله (ﷻ) وضع قوانين الكون ونظّمها؛ فعباداتنا وعملنا ومواقيتنا وبيعنا وشراؤنا والتزاماتنا في الحياة قائمة وفق عالم الأسباب المعلومة والظاهرة.

وكل العلوم التي أبدعها الإنسان هدفها الأساس الكشف عن القوانين العامة التي تحكم الظواهر كي يستفيد منها.

ولكن النظام الكوني ذاته الذي وضعه الله وسيّر به الكون لا يحدّ من قدرة خالقه على التدخل فيه وخرق عاداته.

والسؤال الكبير الذي يطرح نفسه على العقل المسلم: وفق

أي النظامين على الإنسان المسلم أن يضبط بوصلته؟ أهو ضبط على بوصلة الخوارق أم على بوصلة الأسباب المعلومة؟

ولو ضبط نفسه على بوصلة الأسباب المعلومة فماذا يتبقى لإيمانه بقدرة الله على خرق تلك القوانين متى شاء وكيف شاء؟

في ذلك المكان المبارك وفي تلك الأجواء المباركة دعا زكريا ربه بالذرية الطيبة وجاءت الاستجابة وهو في محرابه يجاهد الشيطان ويتضرع لخالقه... سيرزق بغلام مبارك وسيكون هذا الغلام أعلم قومه وينتهي إليه القول (سيداً) وسيكون مبتعداً عن النساء اختياراً (حصوراً) وسيكلمه الوحي ولكنه لن يبعث برسالة (نبياً)... وبدا زكريا مذهولاً من كل ذلك ويريد أن يتأكد مما يسمع... فكيف له الولد ونواميس الكون تمنع ذلك فهو كبير في السن وزوجه عاقر انقطع طمثها ولم تعد مظنّة الولد... ويأتي الرد أن إرادة الله مطلقة ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ وعلى الرغم من أن زكريا يعلم أن الله لا يعجزه شيء إلا أن سؤاله يدلنا على أن العقل السوي يفكر في الأسباب؛ لأن الله قد وضع القوانين في الكون ليعمل بها البشر وينشئوا حياتهم وفقها... وقدّر مقادير حدوث الأشياء كلها... وهذه المقادير مرتبطة بالكم والكيف... فهناك في أقدار الله عمل الإنسان له وزن وهناك الكون وما فيه له وزن وهناك الدعاء له وزن وهناك قدرة الله المطلقة التي تتجاوز كل ذلك... والإنسان يعمل في دائرة الأسباب... غير يائس من تدخل مسبب الأسباب حين يشاء وكيف يشاء... والإنسان في كل الأحوال مسؤول عن مراجعة شطره وما يدخل في مقدوره من سبب مادي مقرون عند

المؤمن بالدعاء، فالمؤمن في كدح ليقوم بأفضل العمل، غير غافل عن الصلة بالله مسبب الأسباب.

هنا يريد زكريا، وهو العالم أن مشيئة الله مطلقة، أن يتأكد أنه مستثنى من عالم الأسباب، على الرغم من أنه رآه يخرق في حالة مريم والرزق الذي يأتيها من دون سبب منها مباشر، وعلى الرغم من أنه من بيئة شفافة تتحدث فيها الملائكة مع البشر، وكان سمْتها العام سَمْتاً فيه إعجاز كما هو في معجزات الأنبياء من خرق للعادات، وفي كرامات الصالحين حينها، ولكن النموذج هنا مرهون بشروطه التي ذكرنا؛ فحديث القرآن عن الخوارق يقول لنا: إن قدرة الله فوق كل قانون، ويلفتنا إلى أن المؤمن يتصرف وفق عالم الأسباب ولا ييأس من روح الله وفضله ومنّه وكرمه.

فزكريا عالم بالمعجزات والخوارق برؤية العين وهو حق اليقين، ولكنه يعلم أن ذلك لا يحدث في كل حين وأن الأصل هو نظام الأسباب، وأن الدعاء من الأسباب، وبالتالي تتكامل عملية الوعي ولا تضيع البوصلة.

الصمت والذِّكر

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [٤١]

ستلد السيدة العقيم... وسيولد لزكريا ولد من صلبه... وربما استغرب قومه فلا يبعد أن يكون زكريا طلب من ربه أمراً تكليفياً كبادرة شكر وكإجابة لقومه عما يستغربون من تطورات، فأُمر بالصمت إلا عن الذكر وأن يقضي حوائجه بالإشارة.

الصمت والذكر قضيتان كبيرتان في مجال التزكية، فخلطة الناس والانشغال بقضاياهم وقضايا الحياة العادية صارفة للقلب عن التفكر في تلك الحياة الروحانية، ولذلك سنجدها مطردة في كل الديانات والفلسفات وإن اختلفت صورها.

التهيئة للأحداث العظيمة

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٢]

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٤٣]

وفي تلك البيئة الشفافة خاطبت الملائكة مريم... وهو خطاب تحفيز وتذكير... فالملائكة تعلمها مباشرة أنها سيدة «مُختارة» من السماء... وأنها مفضّلة على نساء العالمين... وهي في مقابل ذلك التكريم مطلوب منها الإخلاص في الطاعة والمداومة على الصلاة.

إن مريم الطاهرة تُعَدّ لأمر عظيم والملائكة تطمئنها وتخبرها بمكانتها وتطالبها بأن تستمر في توطيد صلتها بالله، فالمهمة التي ستلقى على السيدة البتول كبيرة، وهي مواجهة قومها بأمر معجِز، والله عليم بطبيعة قومها وما سيرمونها به من تهم.

لم تكن مريم تدري لحظتها ماذا يعني هذا الاختيار وما هي المهمة التي ستلقى على عاتقها... فقد تم اختيارها واصطفاؤها.

الحكم على الشيء فرع من تصوره

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [٤٤]

لقد كانت مريم العابدة مكان تكريم بين قومها، فلما فقدت والدها تمنّى كل منهم أو من عُبّادهم أن يضمّها إليه ويرعاها، فكان أن اقترع القوم ومعهم زكريا، فوقعت القرعة عليه على الرغم من أن القرآن لا يخبرنا كثيراً من التفصيلات في القصص القرآني الذي لا يأتي مركزاً على الأسماء والأماكن والتواريخ في الغالب، بل يركز على معنى محدد يوصله إلى المتلقي في ومضة سريعة.

إن الآيات السابقة لهذه الآية قد أفهمتنا أن مريم في كفالة زكريا، وأنها تُعَدّ لأمر عظيم وهنا لمسة جمالية بإضافة معلومة عن مكانة مريم بين قومها، وكيف وصلت لكفالة زكريا (عليه السلام).

ولكن لماذا كل هذه التفصيلات الصغيرة عن الحادثة؟

الحكم على الشيء فرع من تصوّره، والقرآن يضع المصطفى (عليه السلام) في صورة الأحداث من بدايتها؛ فقد كان نصارى نجران يأتون إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليناقشوه ويسألوه... والحكم على الأفكار والأحداث لا يتأتى إلا بفهم جذور نشأتها فهذا ما يؤهّل الإنسان للحوار مع أي فكرة ويجعله قادراً على التواصل معها.

قصة المسيح (عليه السلام)

الدعوة وعلاج مشاكل المجتمع

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [٤٥]

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [٤٦]

ها هي مريم تتلقى الخبر من الله (تبارك وتعالى) عبر الملائكة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، كلمة منه؛ أي: بأمر منه وسيكون ماسحاً لآلام المرضى والفقراء وسيكون سيداً في الدنيا، مؤثّراً في البشر لما آتاه الله من العلم والمعجزات، ويوم القيامة سيكون من المشفّعين كما هم أولو العزم من الرسل، وهو داعية إلى الله من لحظة ميلاده وعَلَمٌ من أعلام الصلاح في الأرض.

الدعوات تتصل بنوعين من احتياجات الإنسان... حاجة العقل وحاجة الجسد... إصلاح العقل يتم بتصحيح المفاهيم والتصورات عن الخالق وعن الخلق، وتوجيه للمهمة الكبرى وهي عمران القلب بالإيمان والصلة بالله، وعمران الأرض

بالنماء وبوقف الفساد وسفك الدماء، وهي في الوقت ذاته حركة لحل مشاكل إنسان المجتمع وانتشاله من الفقر والجهل والجوع والمرض.

عندما تستوفي الدعوة صدق الخطاب والنفع للإنسان تلتحم بعمق المجتمع؛ لأنها وصلت إلى الإنسان عقلاً وروحاً وجسداً.

فمعجزات المسيح متعلّقة بشفاء المرضى والالتحام بالطبقات المحرومة من المجتمع والانحياز إليها والواضح أن تلك البيئة كانت مسكونة بالفقر والجهل والمرض.

مريم ونظام الأسباب
والفرق بين القاعدة والاستثناء

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [٤٧]

مرة أخرى تذكّرنا السيدة الكريمة بنظام الأسباب، فعلى الرغم من أنها رأت معجزة الطعام الذي كان يأتيها في محرابها ومعجزة سيدنا زكريا، إلا أنها كانت ترى أن نظام الأسباب حاكم، فكما تساءل زكريا تساءلت؛ لتتأكد أن ذلك سيتم خارج نطاق عالم الأسباب فمجيء الولد يتم بالمعاشرة، وهي لم تتزوج ولم يقربها أحد... فالخرق حدث استثنائي حتى في عصر الشفافية... العصر الذي يتحاور فيه الإنسان مع الملائكة... ومريم عالمة بقدرة الله ونفاذ مشيئته... وتعلم أنه مسبّب الأسباب... ولكنّها تذكّر نفسها وتتأكد من أمر رأته يستحق، وهو أن سنن الله في خلقه ماضية وأن الاستثناء هو استثناء.

إن عقل الإنسان ابن عالم الأسباب والله يريده أن يقيمه وأن يأخذ به، وإلا هزم وانكسر: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ

أَنفُسِكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فهو نظام صارم مطرد وهو الأصل في حركة الإنسان ومع ذلك لو وقع الأخير تحت فكرة القوانين الصارمة للكون، لشعر باليأس وهو كائن يعيش على الأمل.

ومن هنا تبقى قيم الدعاء والكرامة وتيسير الله (ﷻ) والبركة والتوفيق، صمامات أمان من السقوط في اليأس والقنوط.

ولكن الخلط بين عالم الأسباب وعالم الخوارق في العقل المتدين يخلق مشكلة لا نراها في قصة زكريا ومريم؛ فكلاهما، على الرغم من عصر الشفافية وحديث الملائكة ورؤية المعجزات لم يخلط بين عالم الأسباب وبين عالم المعجزة، وعمل على التأكد من أن ما أخبر به سيتم خارج نطاق عالم الأسباب.

ونحن اليوم نتساءل في البيئة المسلمة هل عالم الأسباب واضح المعالم؟.. إن شاهد الحال يقول: «لا»؛ فأمم الأرض أسبق منا في اكتشاف هذا الكون وتسخير قوانينه، وهي بالتفوق في هذا العالم حققت معجزاتها التي تقع في متناول يد الإنسان في التواصل والتنقّل وفي الأدوات، وشملت إبداعاتها كل مجالات الحياة بينما بقيت المجتمعات المسلمة بعيدة عن عالم الأسباب واكتشافه، وربما تعلقت بالخرافة والوهم أكثر من تعلّقها حتى بفكرة المعجزة الإلهية.

الحكمة ودورها في ردم الفجوة بين النص وبين الواقع

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [٤٨]

هكذا تكفّل الله بتعليم عيسى الكتابة؛ إذ تقوم حياة بني إسرائيل في البيئات المتدينة على التعلم وقراءة الكتب المقدسة، وتعليم الأطفال القراءة والكتابة.

لكن ما هي الحكمة؟ قيل: «هي وضع الشيء في موضعه»، وقيل: «هي أن يصدر الإنسان أحكامه وتصرفاته عن رويّة وسداد». وها هنا عيسى (عليه السلام) يتعلم القراءة والكتابة ويتعلم التوراة وما أنزل عليه من الإنجيل، ولكن ما علاقة كل ذلك بالحكمة؟ فكثير من الناس يتعلّمون ويحفظون ولكن لا يقال عنهم حكماء؛ لأن مصاديقها رؤية قرارات وتصرفات الإنسان في الواقع.

لو تصوّرنا صناعة القرارات والتصرفات كنظام لفهمنا معنى الحكمة بطريقة أفضل، فللنظام مدخلات هي المعلومات التي يتلقّاها الإنسان من الواقع وعنه، وهي تدخل على نظام معالجة عملاق وهو العقل الذي يقوم بتصنيفها والربط بينها وتخزينها

واستدعائها والبناء عليها ومحاكمتها، ثم الانطلاق منها إلى الخارج في شكل أحكام وتصرفات، وهذه إما أن تكون صواباً أو خطأ تتفاعل مع الواقع وتعود في شكل معلومات إلى العقل، وهكذا تكتمل الدائرة في النظام.

فكلّما كان ما تلقّاه الإنسان عن الواقع أدق وأسلم نجحت الخطوة الأولى، وكلّما كانت العمليات الداخلية للعقل أصوب وقدرته على المحاكمة أدق كانت المخرجات أصوب وأدق والتعامل مع الواقع أفضل وأجود، وظهرت الحكمة ووُضع الأمر في محله.

وكم من الناس من يلم بالعلوم الدينية ولكن معرفته بالواقع عليلة، وعملياته العقلية سقيمة، فلا غرابة أن تفارقه الحكمة وتكون قراراته وبالاً عليه وعلى مجتمعه.

إن نقطة الضعف الكبرى في المجتمعات هي عندما لا يتعلم الناس فقه الواقع، ولا يتعلّمون نظم التفكير السوي؛ فلا يعود للعلوم التي يتلقونها قيمة بل تصبح الكارثة أكبر والخطر أشد؛ لأنها تولّد الجهل المركب، وهو أنّ الإنسان يجهل ويجهل أنه يجهل؛ فالجاهل الذي يعلم بجهله يطلب العلم، أما من يعتقد أنه يعلم وهو جاهل فهو متكبر على العلم، معرض.

الدعاوى تحتاج إلى دليل

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرَۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٤٩]

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [٥٠]

من الغريب هنا أن بني إسرائيل ـ وهم قوم عيسى حينها ـ قد علموا معجزة تكلمه في المهد وتطوّر حياته، فالبيئة صغيرة والناس يعرف بعضهم بعضاً، ولكن القرآن يخبرنا بسيل من الأدلة قدّمها عيسى (عليه السلام) بين يدي دعواه بالرسالة.

فبنو إسرائيل في عصر عيسى كانوا مولعين بالطب فجاءت المعجزة على شاكلة ما يألفون، متحدّية القوم في مجال تخصّصهم، كما تحدّى موسى من قبل قوم فرعون في مجال تخصصهم، فجاءت معجزات عيسى (عليه السلام) بالنفخ في الجماد فتدبّ فيه الحياة بإذن الله، وبعلاج العُمي ومن فقدوا صبغة

الجلد، بل إعادة الحياة لمن فقدها وهي قمّة الإعجاز التي لا يدعيها طبيب، وزاد عليها قدرة على التنبؤ فأخبرهم بما أكلوا وما ادّخروا في بيوتهم، وبشّرهم بأن يخفّف عنهم بعض القيود التي حرّمتها التوراة عليهم أو حرّمها الرهبان ظلماً وعدواناً.

جاء عيسى بدعوى كبيرة أنه رسول الله إليهم فكان من الطبيعي أن يطالَب بالدليل، وذلك أمر منطقي فعلي، فمن يدّعي أمراً عليه أن يثبته، وقد فعل عيسى.

فماذا سيطلب منهم؟

لقد طلب منهم أمرين: تقوى الله وطاعة الرسول فيما أمر به من عبادة الله وحده.

العبادة والصراط المستقيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [٥١]

العبادة هي السير على الصراط المستقيم.

والصراط المستقيم هو صراط الذين أنعم الله عليهم.

أضداد الصراط المستقيم طريقان: طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين.

إنه طلب صغير في مبناه كبير في معناه، فإن اتباع الحق يقتضي سلامة الضمير وصواب المنهج؛ فسلامة الضمير هي الشرط الأول لطلب الحق ولاتباعه عندما يستبين، وسلامة المنهج هي بنت التدقيق العقلي في مناهج البحث والنظر.

والقرآن دلّنا على نماذج الذين أنعم الله عليهم وهم يقومون بأعمالهم متّجهين بها إلى الله، فمن عابد إلى آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر إلى مجاهد إلى زارع إلى صانع إلى بنّاء إلى والد لولد إلى أم، نماذج كثيرة عرضها القرآن لشتّى أشكال العبادة.

ومعرفة مفهوم الصراط المستقيم الموصل إلى النجاة ونماذج السالكين الذين أنعم الله عليهم تعطي العبادة معنى واسعاً يشمل كل أصناف الأعمال، وتقود إلى عمران الروح والعقل والحياة.

عندما تصطدم الفكرة بمجتمع الركود

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٥٢]

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [٥٣]

قد تمّ البلاغ وتزايل الناس... مؤمن بالرسالة وكافر بها. وظهر الزمن الصعب فسلطتا القديم والقائم ستنتفضان في وجه الحق... تلك سُنة الدعوات، فالقديم من الأفكار له سطوته على العقول والقائم من السلطان له حكمه في الواقع، وكلاهما لا يقبلان بالجديد الذي ينازعهما السلطة على العقول ويغيّر الواقع الذي تقفان عليه.

لقد ولد المسيح (عليه السلام) في فلسطين... في قومه اليهود الذين كانوا حينها في قبضة الرومان الباطشة... تلك الحقبة من الزمن شهدت حراكاً كبيراً على مستوى العالم... فقد شاخت كل النحل والملل والأديان، فيما يسمّى بحسب بعض المؤرخين بالعصر الفاصل: فمن الصين إلى الهند إلى فارس إلى بلاد البحر الأبيض المتوسط بدأت ثورة فكرية، وأسئلة ضدّ القديم

وإجابات لم تنضج بعد لعصر جديد، وظهر صراع الفرق اليهودية وتفسيراتها المختلفة للتوراة وفي ظلّ ذلك كله جاءت دعوة المسيح... من المذهل أنه ليس هناك أي شيء موثّق في تلك الفترة... ولا نعرف شيئاً عن حياة المسيح منذ تكلم في المهد حتى كهولته. لا شيء نعلمه عن الطفل في طفولته ومراهقته، وعن كهولته وقبل بعثته... فراغ... فكل ما نعرفه عن تلك الحقبة كُتِبَ بعدها بقرون... أما ذات الرسول فلا شيء عنها حينها... ولكن من الطبيعي أن نتوقع أن نقاشات حامية دارت مع الأحبار وخاصة في موضوع التشريعات: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ فهو دخول على خط التشريع الديني... والأحبار هم مؤسسة قوية تقود الجموع... وها قد خرج شخص ينازعها السلطة على الجموع... ودعوى بالنبوة والرسالة... ومعجزات كبرى... وعلى تغيير التشريع... هنا اهتزّ عالم المؤسسة الدينية القائمة... والقرآن هنا يكثّف قصّة مركّبة ستنتهي بمحاولة صلب المسيح الذي دعا قومه وطلب من أنصاره أن يعلنوا موقفهم، وأعلن المؤمنون بالدعوة إيمانهم ونصرتهم للدعوة الجديدة. جاء بدعوة صادقة وأقام كلّ البراهين على صدق نبوته في قوم محدودين هم بنو إسرائيل... دعوة من نسيج ما يؤمنون به من نبوات وإن اختلفت في المضمون... وفي سياقات حياتهم ذاتها... من بيت كريم معروف فيهم... ومن داخل المحراب... دعوة صاحبها ظاهر الصفات... فلماذا رفضتها بيئة الركود... لماذا استنكرتها مع كثرة النبوات فيهم؟ ولماذا استجابت القلة للدعوة وخرجت عن سياق عالمها المألوف وكيف تغلّبت على سلطتي القديم والقائم؟

الدعوة فكرة... والفكرة المتشكّلة هي اعتراض من وجه على عالم قديم... عالم يحتاج إلى تجديد... كانت اليهودية حينها تمر بانقسامات كثيرة فأشهر فرقهم الفريسيون وهم يؤمنون بالطقوس كما يفعل اليهود الأرثوذوكس اليوم وهؤلاء ظاهريون قساة لا يرون لغيرهم حق... ويقابلهم الصدوقيون وهم من كان يوجّه جهوده إلى السلطة والسياسة والثروة... وآخرون مثل الصهاينة الذين يعتقدون بعودة المسيح المخلص، ومثل فرق الاغتيال وعقائدها... كانت الفرق كثيرة... والسؤال: كم كانت المسافة بين الدعوة الجديدة والقائم عند اليهود؟

الرواية اليهودية للدين

اليهود قوم يؤمنون بأنهم شعب الله المختار؛ فالربّ حكر عليهم، والدين لا يستحقه غيرهم، والدعوة لا تكون إلا فيهم وبينهم، ولا يؤمنون بجنة سماوية ولكن بجنة أرضية هي مملكة ستوهب لهم على الأرض عندما يخرج المخلّص، ويستعيد المعبد أو الهيكل المادي وتقوم مملكتهم بحق.

الرواية المسيحية للدين

لقد طلب المسيح أن ينقلب عالم اليهودية من عالم الاصطفائية إلى عالم المساواة مع البشر، فالربّ رب البشر جميعاً ومن عالم يقوم على الظاهر العبادي إلى عالم يقوم على الباطن النقي، ومن عالم لا يرى الحق والعدل إلا لليهود إلى عالم يطالب بالحق والعدل للإنسان، ومن عالم يقوم على الغلظة إلى عالم يقوم على الرحمة.

كانت المسافة واسعة بين الفريقين ولكن الدعوة شقّت طريقها... وانتشرت الدعوة في القدس... فعلى الرغم من أن هيردوس الأدومي حاكم فلسطين حينها، وكان قد علم بالطفل الذي يكلم الناس في المهد، قد قرر قتل كل صبية بيت لحم إلا أن المسيح كبر وبلغ أشدّه ودعا إلى ما بعث له... وبالتالي فأجواء العنف كانت تحيط بالطفل منذ صغره، ولنترك القرآن يحدثنا عن المشهد.

والله لا يحب الظالمين

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٥٤]

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٥٥]

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [٥٦]

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٧]

هكذا اجتمعت على عيسى أحقاد الرومان الوثنيين وأحقاد الأحبار والرهبان المصدومين في نظامهم المعرفي. . . والرواية الشائعة أنهم دسوا للمسيح من بين حوارييه جاسوساً ليسلّم المسيح إليهم لقتله.

وهكذا استكملت القصة حلقاتها بمحاولة قتل صاحب الدعوة، يلخص كل تلك القصة الطويلة: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. هم قاموا بكل حيلهم الدنيئة والله من ورائهم

محيط... فجازاهم الله بمكرهم وانتهت مهمة عيسى على الأرض واستوفت أركان البلاغ وأعلمه الله أن أيامه على الأرض قد تمّت ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾، فقد استوفى البلاغ واستوفى عدد الأيام... وأعلمه أنه سيُرفع إلى السماء...

وأعلمه أن أتباعه ومن يؤمن بدعوته إلى الوحدانية من بعده سيكونون أعلى شأناً في الدنيا وأعلى حجة ممن كفر به من اليهود إلى يوم القيامة وأعلى حجة ممن انحرف بدعوته من أنصاره بعد رحيله، ستنتصر دعوة الوحدانية وقيم الرحمة على قيم الغلظة...

أما جوانب الخلاف التي لم تحسم في الدنيا ولم تقم عليها البيّنات القاطعات وانقسم الناس حولها فلا سبيل إلى معرفة الصواب المطلق فيها في الدنيا ومردّها إلى الله لبيانها في الآخرة.

أما من قامت عليه الحجة واختار الكفر علواً واستكباراً، فهؤلاء لهم عذابان: **الأول** في الدنيا فالكبر عاقبته وخيمة؛ لأنه أساس الطغيان الذي يقود إلى خراب الديار. أما **الثاني** ففي الآخرة وأمرها معروف؛ فمن قبلوا الحق وعملوا بمقتضاه فسيَصِلُهم أجرهم وأجر معاناتهم كاملاً غير منقوص: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾، وبقي التعقيب الخالد، والله لا يحبّ الظالمين.

هناك أمور كثيرة غير الظلم كره الله من اتصف بها كما يخبرنا استقراء القرآن، مثل:

- السوء من القول
- الإسراف

- الفرح بطراً
- الظلم
- الفساد
- الكفر
- الاعتداء
- التكبر
- الخيانة

وهي قائمة حريّة بالنظر على المستوى الفردي والجمعي. . .
كلها أمور لا يحبها الله ولا يرضاها لعباده، والآية تتكلّم عن صنف منهم وهم الظالمون. . . وموضوع الظلم شأنه مع الإنسان عجيب. . . هو يقع من كل البشر مؤمنهم وكافرهم. . . والكل يجد لنفسه مخرجاً ويدّعي أنّ الوصف لا يقع عليه. . . والظلم نقيض الإنصاف. . . والإنصاف أن لا ترضى لغيرك ما لا ترضاه لنفسك. . . والإنصاف ألا تكيل بمكيالين فإن كان لك الحق استوفيته وإن كان لغيرك غمطته. . . ولو نظرنا إلى القائمة أعلاه لوجدنا أن مركز كل الآفات هو الظلم؛ فالظالم يختار أسوأ القول غير آبه، وهو مسرف في الانتقام، وفي التبديد للنعم، وهو فرح بطراً، وهو منكر للحق كافر به، وهو متكبر ومعتدٍ، وهو خائن لما استحفظ عليه من الحق؛ لأنه لا يرى لغيره حقاً ولا حرمة، فكل تلك أوجه من الظلم.

إن السؤال الذي ألحّ على ذهني وأنا أقرأ هذه الآيات هي نفسية الظلم وكيفية تولّدها. . . كيف لإنسان أن يفقد ذلك الإحساس العميق بالآخرين وما يقع عليهم من ضرر؟ وكيف

أوجد آلية التبرير الذاتية؟.. وكيف خلق منظوراً للحياة وفلسفة تجعله لا يرى ما يفعل ويتمادى فيه؟ وما هي البيئة التي تعين على مثل هذا السلوك؟

حين نقف مع القصة التي بين أيدينا وفيها طرفان مختلفان هويةً ومتّحدان سلوكاً: بنو إسرائيل والرومان الوثنيون، يمثل **الأول** السلطة الدينية، **والثاني** السلطة السياسية... نجد أن السلطة الدينية خافت على منظومتها المعرفية ومصالحها التي نتجت عنها، والسلطة السياسية خافت على منظومتها المعرفية ومصالحها المترتبة عليها... وكلتاهما اعتبرت الجديد القادم تهديداً وجودياً للمنظومة المعرفية والمنظومة المصلحية... ومثل أي منظومة حيّة قاعدتها: «الخطر يجب أن يزال بأي تكلفة»، تتم بقية الخطوات بشكل آلي، فالجسم الحي إن استشعر خطراً وجّه طاقته لإزالته، ومن وحي ذلك تصرّف الرومان واليهود تجاه المسيحية فشيطَنوا الدعوة الجديدة وكذلك تفعل منظومات الظلمة... فالآخر لا بد من شيطنته بالكامل حتى يسهل التعامل معه الأمر الذي يحقّق غرضين: **الأول** داخلي ذاتي لإرضاء النفس وتبرير فعلها، **والثاني** دعائي غايته تحفيز البيئة للاشتراك في القضاء على التهديد...

ها نحن مع سؤال عميق: وهو أن الرومان والأحبار كانوا يدافعون عن منظومتين: معرفية ومصلحية، وتلك طبيعة الأشياء، فما الذي يجعل فعلهم هذا خاطئاً؟... أليس هذا هو السلوك المتوقّع من كل أصحاب المنظومات مسلمهم وكافرهم؟ ما هو بالتحديد الجانب الذي يطالبهم القرآن به ويتوقعه منهم جميعاً (كافرهم ومؤمنهم) ولماذا؟

إن القرآن يميّز بين الإنسان ككائن غريزي وبوصفه كائناً عاقلاً متفكراً؛ فخاصيته الأولى هي العقل بجزئه الواعي المتفكر، ووظيفة العقل الأولى هي الاختيار والقرار الإرادي، فهو يتلقى من البيئة الخارجية مدخلاتها وعروضها، وهو بعد ذلك يقوم بالتحليل والتركيب والمقارنة والترتيب والتثبيت والنفي والقبول والرفض، وبعدها يتّخذ قراراته. والقرآن هنا يطالبه بأن يوظف السمع، والبصر، والفؤاد: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] والتلقي ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ [الزمر: ١٨] والنزول لمستوى المخاطب: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] وطلب الدليل والبرهان: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١] والتدبّر والتعقّل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾... واتّباع الحق ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]..

والإنسان يميّز بين المعتقدات واليقين... فالمعتقدات هي جزم بالصواب سواء وافق الحق أو خالفه... أما اليقين فهو ما قام عليه الدليل واستقر... وبسبب استقراره على الدليل لا يخاف النقاش بل يطلبه... أما الجازم من غير دليل فتعوزه الحجة فيلجأ إلى سلاح البطش كبديل...

فالذي يطلبه القرآن من الناس كلهم عبر العصور أن يستمعوا ويناقشوا وينظروا في الدليل، وأن يتّبعوه إن ثبت، ذلك هو المتوقّع والمطلوب، ولكن حين لم تستطع أدلة القديم أن تصمد أمام قوة الدليل والبرهان لجأت إلى أدواتها الباطشة.

ويخبرنا القرآن هنا أن أصحاب المسيح سيبقون فوق من خاصمهم لسبب بسيط وهو أنهم كانوا أتباع الحقيقة وهي ستبقى خالدة.

عيسى وآدم (عليهما السلام) وقوة المنطق

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [٥٨]

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [٥٩]

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [٦٠]

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [٦١]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٦٢]

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [٦٣]

تصل الأمور مع المجادلين في عصر الرسول (ﷺ) من النصارى إلى نهاياتها... ويطرحون آخر أوراقهم وهم يقولون... أليس عيسى وُلِد من غير أب من البشر؟ فأبوه هو من في السماء؟ فهو على ذلك ابن الله!

ولا يهمل القرآن السؤال على الرغم من أنّ فكرة المعجزة

لا تغيب عنهم، فهم عالمون أنّ الله يفعل ما يريد ولكن القرآن يتنزّل لخطابهم فيجيبهم: إن كانت معجزة المسيح أنه من غير أب فمعجزة آدم أنه من غير أب ولا أم، فمن باب أولى أن تنزلوه منزلة أكبر، وقد قلتم إنّ آدم تمّ بكلمة الله «كن» فكان، وذلك ينطبق على عيسى (عليه السلام)... لقد استخدم القرآن معهم المنطق وما يسمى قياس الأولى، فهل ينفع معهم المنطق؟

إن المكابر لا يطلب الحقيقة أو المنطق بل يتوسل بكل طريق لإثبات باطله، ويضيق الأمر بالداعية ويصل إلى نهاية الطريق مع المكابرين... لا يبقى إلا طريق المباهلة... طريق أخير لمواجهة موجة الكذب مع أناس يعلمون أنهم مكابرون وأن الحق ليس في جانبهم وأنّ الله مطّلع عليهم وقادر. والمباهلة هي نداء ليجتمع طرفا الدعوى مع كل من يحبون من أقرب الأقربين ويبتهل كلاهما إلى الله بأن يجعل لعنته على الكاذبين، ثم يُترك الحكم لله وهي مغامرة لا يُقدم عليها إلا الواثق من الحقيقة؛ فالنتيجة هي الطرد من رحمة الله، ومن يطيق أن يطرد منها؟! فكان من الطبيعي أن يمتنع القوم لأنهم يعتقدون بوجود إله من جهة وهو قادر عليهم، ويعلمون أن دعواهم ببنوة عيسى ظنّ وضرب بغير هدى... فليس هناك إلا إله واحد لا شريك له ولا منازع...

ها هو القرآن يجيب عن المنطق بالمنطق، ويحدّث البشر بما يعقلون من القول، إنّ المتحدّث هنا ليس محمداً (صلى الله عليه وسلم) بل رب العزة، شيء مذهل أن تعتني السماء بهذا الإنسان الضعيف هذا الاعتناء على الرغم من عجزه ومكابرته!

لا رب إلا الله

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤]

لقد كان الحديث السابق عن النصارى، والخطاب ينتقل بعدها إلى مجمل أهل الكتاب ليشمل اليهود والنصارى. ونظرة واحدة في المطلوب من أهل الكتاب.

الاتفاق يجب أن يتم على:

١ ـ منطقة وسط بين الطرفين (سواء).

٢ ـ أن يتجه الجميع بعبادتهم إلى الله وحده.

٣ ـ ألا يشرك بالله شيئاً.

من الواضح أن تلك قضايا تمسّ الإنسان كل إنسان؛ فتحريره من العبودية لغير الله هو أول الواجبات ولو كانت من الأحبار والرهبان، ويبقى السؤال: كيف بسط الأحبار والرهبان سيطرتهم على العقول وأصبحت لهم القدرة على أن يضيفوا إلى الدين المنزل من السماء وينقصوا منه؟ ولماذا تبعهم الناس على

ما يقولون على الرغم من أن السماء لم تشرّعه ولم يتنزل به الوحي؟ وهل ذلك قاصر على الأديان السابقة للإسلام أم أنه سلوك مطّرد فيها كلها، وما حكاه القرآن عن الأمم الأخرى قابل للتكرار، وما قصصهم إلا عبرة؟

إن الإجابة عن الأسئلة السابقة مهمة جداً في هذا السياق، فالأحبار والرهبان يواجهون الجماهير باعتبارهم قوة علمية مطّلعة على الكتاب وإن الوصول إلى ما في الكتب السماوية متعذّر من دونهم، ومع الوقت تنشأ طبقة تزيد المسافة بين الإنسان العادي والنص، وتصبح تلك الطبقة هي المترجم الوحيد للنص، وعندها تبرز كل تشوّهات النص، فتدخل في حكم البشرية الأهواء والمصالح وسوء الفهم والتأويل، وتتراكم في الفضاء ويصبح العبور إلى النص شبه محال، وتمارَس بعدها كل أدوات التهميش لإنسان المجتمع وإشعاره بعجزه عن الفهم، وتختفي تلك السهولة التي كان النص فيها يصل من المبلّغ مباشرة إلى آذان الناس العاديين، ويدعوهم فيها إلى التفكر والتأمّل، ويجيب عن أسئلتهم واعتراضاتهم، فقناعات الناس بفعل الأحبار والرهبان تتغيّر، وثقتهم في أنفسهم تضعف، ويستسلمون لهذه الطبقة التي تصبح الممثلة للدين الذي يختفي وراء حجب ما تنتجه. . . وهو سلوك مطّرد في البشر قابل للحدوث في كل الأديان ما لم يتم التنبه له ومقاومته، والقرآن يعرض علينا سِيَر الأقوام السابقة ليحذرَنا من أخطر ظواهر التديّن الذي طال عليه الأمد وذلك الحجاب التأويلي الذي تصنعه أفهام الناس وتحجب به نور الوحي.

المسافة بين معرفة الحق والاستسلام له

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [٦٥]

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [٦٦]

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [٦٧]

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [٦٨]

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [٦٩]

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [٧٠]

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [٧١]

المنطق هنا واضح، فحجاج أهل الكتاب أنهم أعلم بدينهم ودعواهم، وأنّ ما هم عليه هو عين ما جاءهم به أنبياؤهم وهو

قول وإن لم يصح ولكنْ له مسوغ ونصيب من الحجّة لا ينكرهما القرآن على الرغم من أن التحريف وارد عقلاً مع طول الأمد. . . ولكن لمجاراتهم في القول. . . يتنزّل القرآن متجاوزاً هذه النقطة، ها أنتم حاججتم فيما تدّعون أن لكم به علماً؟ والسؤال كيف عرفتم أن إبراهيم؟ ـ وهو قد سبق أنبياءكم ـ كان على معتقدكم ذاته وتصوراتكم؟

نحن من الآيات نكتشف نسقاً عاماً للناس، حين يألفون أفكاراً بعينها ويطول عليهم الأمد معها، فتأخذ مجرى المسلّمات، فالقوم يعرفون ما نزل عليهم وأن ما جاء به الدين الجديد مطابق لأمّهات القضايا التي عندهم في الكتب التي بين أيديهم، ولكنهم مع ذلك:

١ ـ يستمرون في الجدل على الرغم من علمهم بالحق.

٢ ـ يستبطنون رغبة عارمة في تضليل المقابل.

٣ ـ يعمدون إلى خلط الأمور حتى لا تظهر الحقيقة.

إن هذه الآفات ليست خاصة بأهل الكتاب. . . بل هي تعليمية لكل صاحب فكرة مستقرة بأن يترك بينه وبين أفكاره مسافة تسمح بالاستماع لغيره واتّباع الحق إن استبان له، فالإنسان في الغالب ابن عواطفه وميوله، فقد يستبين له الصواب فيتنكر له، إنه باستمرار يَجِد الحيل لعدم الانصياع للحق.

التواطؤ على الباطل وسلوك الأحبار

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٧٢]

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٧٣]

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [٧٤]

بين المكر وطفولية الأفكار شعرة... فهنا مؤامرة تستهدف زعزعة ثقة المقابل بدينه، فكان الشخص يعلن إيمانه في أول النهار فيفرح المؤمنون، وما أن ينقضي النهار حتى يعود إلى دينه ويُعلن أنه اكتشف خطأه... نفهم من ذلك أن الحراك بين المعسكرين كان سهلاً بسبب تلك الخنادق المتداخلة؛ فاليهود والمشركون والمنافقون والمؤمنون يعيشون جنباً إلى جنب في المدينة، ويلتقون في الأسواق والمجالس العامة... وفريقا الإيمان والكفر متقابلان، وكفة الإيمان قوية تتصاعد قوتها، واليهود حينها يوصي بعضهم بعضاً أن يحذروا من تسريب ما

يعرفونه من كتبهم إلى المؤمنين حتى لا يستفيدوا منها في حجاجهم معهم ويستخدموها كدليل ضدهم.

وليس الأمر متعلّقاً باليهود فهو سلوك مطرد في البشر وخاصة أهل الأديان، فهم في سبيل المغالبة يطالبون أن تُخفى أمور عن العامة وعن المخالفين حتى لا تُستخدم في الحجاج الدائر في المجتمع، فيكسب بها الخصم نقاطاً على حساب هذه المجموعة أو تلك، فالحقيقة هنا غير مهمة والمهم هو المغالبة، ولكن من يتصرف بمثل ذلك لا يسأل نفسه هل هو فعلاً يضرّ بخصمه أم يضرّ بالطرفين بإخفاء الحقيقة؟

إن سلامة أي موقف تكمن في سلامة المعطيات التي بُني عليها، وحين تخفى حقائق الموقف عن المعنيين به تضلّ القرارات والمجتمع المسيّر بتلك القرارات التي اتّخذت في غياب المعطيات الصحيحة، تلك خطورة ذلك السلوك، فهل ننتبه له كما أراد القرآن أن يكشفه برواية هذه الحكاية عن يهود المدينة؟

التدين المزيف يستبيح حقوق المخالفين

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥]

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [٧٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٧]

هنا، وعلى الرغم من احتدام الصراع بين المعسكرين، فالإسلام لا يساوي بين أهل الكتاب جميعهم بل يفاضل بينهم؛ فهناك فريق في منتهى الأمانة واعتدال النظر: ﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾، وهناك صنف تشوّه فهمه وانحرفت بصيرته: ﴿إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾... والنص فيه تزكية للصنف الأول وتقريع للصنف الثاني... مرة أخرى نحن أمام التدين الصادق والتديّن المغلوط... فالوعي بالدين باعتباره مسطرة أخلاقية قد يتشوّه، فيعُدّ الإنسان الدين أداةً للمخادعة تحت ستار الاختلاف

الديني ويبيح لنفسه مع المخالف اعتقاداً، ما لا يرضاه لنفسه لو وقع عليه. . .والقرآن هنا يدين ذلك بأشنع وصف: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهم يعلمون أن الله لا يرضى من الإنسان أن يسرق أخاه تحت أي حجة، ولا أن يظلمه ولكن بعض أشكال التدين المزيف تفعل.

نظرة أهل الكتاب إلى العرب حينها أنهم لا يقرؤون ولا يكتبون فهم أمّيون، وبما أنهم صنف دونيّ فليس له حق العدل ولا حفظ الأمانة ولا رعاية العهد، والله لا يأذن بذلك ولكن القوم ينسبون سلوكهم إلى الدين!

وهم يعلمون أن هذا كذب على الله. . . هكذا يتسلّل فساد الأنفس إلى أهل الأديان: حسد وكراهية للغير وغمط للحقوق. . . ونسبة هذا الاختلال إلى الخالق مشكلة في العمق متعلقة بحساسية الضمير تجاه عظمة الخالق. . . والسؤال الكبير كيف تتسلّل ظاهرة فقدان الضمير إلى شخص متدين أو هكذا يبدو ظاهره حتى يفتري على الله الكذب؟

والناظر حوله يجد لكثير من الناس المسلمين التصورات ذاتها عن الآخر المخالف، ويجد فتاوى وآراء تستبيح حقوق الآخر لمجرد أنه مختلف، والله لا يرضى ذلك ولا يقرّه، فدائرة الحقوق جوهرها العدل، فما لا يرضاه الإنسان لنفسه يجب ألا يرضاه لغيره، ومن فعل أو برّر فليتذكر أن أولئك لا خلاق لهم في الآخرة، ولا يكلّمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم.

الوضع والوضّاعون هم الحلقة الأخطر

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٨]

آفة الأديان هم الوضّاعون وهم قوم يضيفون إلى الدين ما ليس منه، يصوّرون للناس أنه دين وأنه كلام أوحت به السماء، ونطق به الأنبياء وهم يقومون بذلك عن علم... وكم تبتلى الأديان كلها بذلك، فإن لم يستطيعوا الإضافة إلى صلب الكتاب لم يدخروها لشروحه ومتمّماته، فاليهود أنشؤوا التلمود كمكمّل لكتابهم المقدّس وهي طريقة أخرى لتحوير الدين وآفة لا تقتصر على أهل أي دين! الكل عرضة لذلك وبعدها يحدث البلاء فلا يعود الدين ما نزل به الوحي ولكنه مظنون... ومهما تمت عمليات الفلترة فلا يسلم الأمر من مرور بعض هذا الخبث فيتكدّر نبع الدين الصافي. هنا يحذّر القرآن من هؤلاء الذين يقولون على الله الكذب وهم يعلمون!

والسؤال الذي يخطر في البال: ماذا عمن ينقل الأقوال معتمداً على ثقته في هؤلاء؟.. فهؤلاء هم من الأحبار والرهبان

ينقل عنهم الناس باعتبار أنهم الأعلم.. كم درجة الاحتياط التي يجب أن يتّخذها هؤلاء ممن يتلقّون ما يسمونه ديناً وهو ليس بدين؟

تلك معضلة الإنسان العادي أمام تلك المؤسسة التي يديرها الأحبار والرهبان فهي تنطق حينها عن الله، والعامي لا يمتلك الأدوات التي تعينه على كشف الزيف والإضافات!

كيف تؤلّه المخلوقات؟

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [٧٩]

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [٨٠]

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [٨١]

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [٨٢]

كيف لنبي يوحى إليه وأوتي الكتاب هادياً وأعطي الفصل بين الناس أن يأمر الناس بعبادته؟

إنما أمرهم بأن يتصلوا بالله وحده وأن يعملوا بما علموا من الكتاب الذي يدْرُسونه ويُعلّمونه للغير، فليس من طبيعة الدين الحقّ أن يُعبّد الناس إلا لله.

لم يقل لأي نبي قبل محمد (ﷺ): أنت خاتم الأنبياء، فمن الطبيعي أن يُخبر الأنبياء أن رسالاتهم ستتلوها رسالات وأن الجديد مهيمن على القديم ولذلك كثرت النبوّات في بني إسرائيل من دون استغراب والوصية واحدة... فعلامة صدق الأنبياء أنهم لا يدعون إلا إلى عبادة الله وحده، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأن تقوم شواهد تصديقك لقولهم من سلوكهم المشاهد في حياتهم وبنو إسرائيل حينها كانوا ينتظرون نبيَّ آخر الزمان ويهدّدون العرب به فلمّا جاء من العرب رفضوه علوّاً واستكباراً.

الرسل لا يقولون لنا: اتخذونا أو اتخذوا أيّ شيء إلهاً ورباً إلا الله؛ فمن أين جاءت كل هذه الآلهة المزيّفة وكيف أُسبغت عليها المقدسات؟

يبقى السؤال الكبير حول تلك الطبيعة الإنسانية التي تميل إلى إسباغ العظمة على من ترى عظمته إلى أن تصل به إلى تخوم التقديس. إن الإنسان مولع بتجسيد الآلهة فهو قد يلتفت إلى حي أو ميت، زعيم أو صالح أو عالم، فيرتفع به في الوصف حتّى يصبح الاعتراض عليه نوعاً من الكفر... لننظر من حولنا إلى عمليات إسباغ القداسات وأوهام الكمال فهي الأخطر على عقول البشر والأعنف.

إن باب الحضارة يُغلق حين تعدّ أقوال البشر - أي بشر - آخِر العلم، فالعلم شأنه الحركة والتجدّد وكلما انفتح باب السؤال تطوّر وانفتحت آفاقه، وهذا لا يقف على العلوم التطبيقية ولكنه يشمل العلوم الإنسانية في السياسة والاقتصاد والاجتماع، فعقل الإنسان والجسد الاجتماعي ينموان يوماً بعد يوم، ومعه

تزداد الحاجة إلى توسعة أفقه العلمي والمعرفي، فيوماً ما كان الاقتصاد تبادلياً قروياً ثم نشأت اقتصاديات المدينة ثم نشأت التجارة الدولية العابرة للدول... ثم العابرة للقارات... ثم ولد السوق الكوني... وانتقل الناس من عصر التبادلات النقدية إلى التبادلات الإلكترونية، والله أعلم إلى أين يتّجه العالم مع انفتاحه على بعضه... وقل ذلك عن السياسة والاجتماع الكوني...
كل شيء يتحرك بسرعة العلم وتطور الإنسان ولا مكان للتوقف ومسؤولية المحافظة على الذات هي بنت العلم وهو ابن السؤال والسؤال يموت مع كثرة المقدسات والممنوعات؛ فحين نصعد بأقوال البشر إلى مرتبة القداسة ويكثر هؤلاء وأقوالهم يختفي الدين وراء الحجب ويصبح هؤلاء هم الدين من دون أن نشعر.

هل يُقبل عند الله دين غير الإسلام؟

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [٨٣]

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [٨٤]

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [٨٥]

الإسلام في معركته الكبرى لتعبيد الناس لله وحده، وإقناعهم بالرسالة الخاتمة في الجزيرة العربية، يحاور أقواماً مباشرين يلتقيهم الرسول (ﷺ)، ويناقشهم ويعرض عليهم مبادئ الدين القويم مدركاً خبايا رسالاتهم وما يخفونه منها... فالرسول (ﷺ) قائم والمخاطبون قائمون والبيان واضح، ومن لم يؤمن فقد قامت عليه الحجّة فهو منكر للدين علواً واستكباراً، وهذا شأنه واضح وذلك هو كفر الاستكبار والعناد!

ولكن ماذا عن بقية البشر وأديانهم ممن لم تقم عليهم الحجة ولم يبلغهم الدين ببيان واضح، فهم قارّون على ما ألفوه وهو شأن أغلبية البشر... فأغلبيتهم معنية بيومياتها ولن تتبع كل

الأديان لتعرف صوابها من خطئها.. فما هو حال هؤلاء؟

هنا وقفت بي المراكب... فما أقرؤه في كتاب التفسير المأثور لا يستقيم مع ما تطرحه النفس من تساؤلات!

ولا سبيل إلى حلّ التعارض إلا بوضع الآيات ضمن سياق تقرير الحقائق ورؤية النسق كاملاً لمعرفة كيف تتجه البوصلة... فآيات القرآن يمكن النظر إليها باعتبار الفضاء الذي تعمل به - والتقسيم للتقريب هنا - فهي إما أن تتكلّم عن عقائد وطبيعتها الحسم، وإما أن تتكلّم عن الحقائق المجرّدة، وإما أن تتكلّم عن الحقوق، ودائرة الحقوق مقسومة إلى ثلث للحياة الطبيعية أو منطق السلم بين البشر، وثلث لآيات الدعوة وطبيعتها الرفق واللين، وثلث لآيات الحرب وطبيعتها العدل والشدة، ولو نظرنا إلى آية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ فهي تقرر حقيقة أنه بعد تنزل الإسلام، فهو الدين المقبول عند الله من دون سائر الأديان ولننظر بعده إلى بقية التقريرات التي تدور في منطقة الحقائق للتعرف إلى النسق وبعض مفرداته:

١ - لا يكلف الله نفساً إلا وسعها

٢ - ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

٣ - ولا يظلم ربك أحداً

٤ - ونضع الموازين بالقسط ليوم القيامة

هنا يمكن فهم النص بشكل أوضح، فالدين عند الله هو الإسلام، وخاتم الأديان هو الإسلام الصحيح ومن بلغه الدين بيّناً واضحاً وعلم الحق فيه قامت عليه الحجة ومن لم يبلغه الدين فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ولن يظلمه الله وسيعامل بالقسط يوم الحساب.

الطبيعة البشرية حين تلتقي بالفكرة

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [٨٦]

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٧]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [٨٨]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٨٩]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [٩٠]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [٩١]

الظواهر الاجتماعية البشرية متكررة والنفس البشرية هي ذاتها في كل عصر ومصر تتنازعها عوامل كثيرة، منها: النفسية والاجتماعية والاقتصادية، بالإضافة إلى القناعات الفكرية ودرجة

صلابتها. ولم تكن حال المجتمع الذي تنزّلت فيه الرسالة مختلفاً، فقد شهد ظواهر الإيمان الصلب غير المنازع وظواهر النفاق والتردد والردة والقرآن، يعرض تلك الصور ويقدم لنا تلك الطبيعة الإنسانية وهي تتفاعل مع الفكرة؛ فظاهرة الإيمان تبلغ مداها في البذل والعطاء فيشيد بها القرآن ويبشرها بالنعيم المقيم فتأتي الجنان ورضى الرحمن في مقدمة تلك العطايا، فماذا عن بقية الظواهر لنبدأ بظاهرة النفاق ونلقي الضوء على بعض أبعادها ثم نعرج على ظاهرة التردد ثم ظاهرة الكفر المقيم.

النفاق ظاهرة خطيرة، وتعريف المنافق أنه شخص يظهر خلاف ما يبطن؛ أي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، تعريف قاصر فعبد الله بن أبي بن سلول كان معروفاً بأنه رأس المنافقين في المدينة، وكفره صريح فهو القائل بحسب القرآن: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨] فليس بعد ذلك كفر، والأصح أن يقال إن النفاق أحوال منها المستخفي الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ومنها الصريح الذي يظهر الكفر ويأتي بعض أعمال الإيمان، وهو خاضع لسلطان الإسلام لا يرفع عليه سلاحاً وهو حال عبد الله بن أبي بن سلول ومن شابهه في المدينة، وهؤلاء أطال معهم القرآن الحديث وخوّفهم وكشف ما في نفوسهم وبيّن أحوالهم وتركهم مع خطرهم على المجتمع ليراجعوا أنفسهم...

وظاهرة النفاق كانت معروفة في المدينة تحت ظروفها التي لو تكررت لبرزت الظاهرة ذاتها بسبب الطبيعة البشرية، ولكن الغالب من النفاق اليوم هو النفاق السلوكي وليس الاعتقادي،

فتنتشر في كثير من أفراد المجتمعات المسلمة، اليوم، ثلاث ظواهر حدثنا عنها الأثر:

- إذا حدّث كذب
- إذا وعد أخلف
- إذا ائتمن خان

فالكذب وإخلاف الوعد وخيانة الأمانة كلها قضايا في غاية الخطورة على الأمن والسلام الاجتماعي، بل على بقاء المجتمعات ذاتها؛ فهي ليست فقط قضايا متعلقة بشؤون الأفراد كما يتصور الإنسان للوهلة الأولى ولكنها تعني المجتمع كله، فأمن الدول في الحرب والسلم قائم على البشر؛ إذ كيف يقوم مجتمع بمن يكذب ويخلف العهد والوعد ويخون الأمانة، فتلك الاخلاق الضارة بأي بناء اجتماعي هي قضايا في صميم التربية والبناء، وهي قضايا لا تنفع فيها مسائل الوعظ بل تحتاج إلى صلابة التربية والتنشئة وسلامة المحاضن والبيئة المحيطة بالإنسان حتى تستقيم عليها النفس.

ثم تأتي ظاهرة التردد بين إعلان الكفر والالتحاق بمعسكر الكفر وبين التراجع عن الكفر والعودة إلى حظيرة الإيمان والقرآن، وحين يحدثنا عنها يتكلم عن جزء مهم من الظاهرة البشرية حين تواجهه بأي فكرة قوية طاغية، والدين في جوهره فكرة وإن سمت بمصدرها ولكنها تعرض نفسها على العقل تناقشه وعلى النفس فتعانق أشواقها، والعقل والنفس ظاهرتان محيرتان في تفاعلهما سلباً وإيجاباً... وفي تلك اللحظة التاريخية كانت الوشائج الأسرية في قمتها؛ فنظم الدعم

والحماية كلها مرتبطة بالقبيلة والعائلة وكل ما يرتبط بذلك من مصالح ومنافع، ولم يكن مستغرباً أن تبرز ظاهرة الحيرة والتردد فبين وضوح الحق وبين كل ذلك التشابك الاجتماعي يضعف البعض ويرتد. وهنا تأتي الآيات مبيّنة بكل ثقلها الموقف لتقتلع الإنسان من غفلته وتضعه أمام ضميره... فهو قد شهد أن الرسول حق... فكيف له أن يتراجع عن شهادته...

ولكن المذهل والذي يتسق مع سائر نصوص القرآن أن الآيات تفتح الطريق لهؤلاء للتراجع والعودة إلى حظيرة الإيمان هذا من جانب، ومن جانب آخر تكتفي بتحذيرهم من مغبة الاستمرار في ذلك المسلك بأقسى العبارات ثم تتوقف... إنها تتعامل مع الإنسان باعتباره صاحب القرار وصاحب الاختيار... إن شاء آمن فحظي بالرضى وإن شاء كفر فعلم مصيره ومآله... وذلك يتسق مع مهمة الرسول (ﷺ) وضوابط دعوته فالقرآن يحذر الداعية من أن يتقمص نفسية السيطرة ونفسية الجبر والإكراه ونفسية الوكالة واعتقاد أنه هو الحفيظ على البشر:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

وتظل الأسئلة الآتية: ماذا بقي من كل ذلك في عصرنا

الذي انفتحت فيه الحدود وبلغ تعداد أمة الإسلام المليار ونيف من البشر وتباعدت الأقطار وتداخلت الأعراق والملل والنحل؟ وكيف يقوم القرآن بدوره في هداية الإنسان إلى الله؟ وكيف يستنقذه من مصير هو ملاقيه؟

وكيف يتصرف الداعية في عالم تحررت فيه إرادة الإنسان كما لم يحدث في أي عصر مضى؟ وكيف يقوم بالبلاغ وهو يواجه عالماً قد اختلفت معالمه عن عوالم نزول الوحي الأولى؟

إن الداعية بحاجة إلى وعي محيط بحدود مهمته وهي البلاغ المبين، وهو بحاجة إلى أن يعرف الإنسان وتوع استجاباته فهناك المؤمن بصدق، وهناك المتردد المحتار، وهناك الكافر بحق، وهاك من لم تبلغه الدعوة والبيان بعد... أما بعد البلاغ والبيان... فعليه أن يوطن نفسه على حقائق التنوع البشري ويردد قول الله (ﷻ) لرسوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

تعديل مفهوم الإنفاق

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [٩٢]

إن كان البر منتهى الإحسان فكيف به من المولى (ﷻ)؟! والآية تقول: إن الطريق إليه هو الإنفاق من أحب الأشياء إلى نفس الإنسان، وما تحبه النفس وتهواه كثير، ربما كان مالاً سائلاً أو أرضاً أو جارية تعتق لوجه الله، ولكنه في فضاء النص يتسع ليشمل كل ما يحب الإنسان... وقته الذي يريد أن يمضيه في متعة أو شهوة... وعلمه الذي يريد أن يصل به إلى المراتب العليا في الحياة... ومهاراته التي يكسب منها... وعلاقاته التي يضن بها... فكل هذه الأشياء جزء من ثروة الإنسان القابلة للإنفاق..

إن إعمار الأرض لا يتحقق إلا بكثرة المنفقين، والنفس البشرية مفطورة على الشحّ وحب البقاء. ومقاومة تلك النوازع والتسامي بالنفس لمرحلة العطاء طريقها المجاهدة وأولها معرفة الله حق المعرفة، وكذلك أسرار العطاء، والقرآن مليء بالحث على العطاء وتعظيم أجر المنفقين. ولكن مفهوم الإنفاق

أصابه خلل كبير عبر العصور؛ لأنه انحصر في فكرة المال وإنفاقه ثم أصيبت في مقتل عند حصره في بعض الأوجه دون غيرها. واسترجاع تلك الأفكار الكبرى من ذلك الركام المتزاحم من التصورات المغلوطة مهمة كبرى في هذا العصر الذي تبتغي فيه الأمة أن تسترجع أمجادها ومكانتها بين أمم الأرض.

ولكن مفاهيم القرآن تتشابك، فلا يمكن فهمها إلا إن وضعت مجتمعة في نسق ولننظر إلى المفاهيم الآتية ليستبين لنا المعنى:

• غرض الأغراض هو رضى الله (ﷻ) ودخول الجنة والنجاة من النار.

• جوهر الدين نشر الرحمة وتوصيلها للخلق: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

• أساس الدين الإيمان: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣].

• ومظاهر الإيمان خارجياً لها بعدان: خط ممتد للسماء، وخط ممتد للأرض: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣].

• مهمة الإنسان إعمار الأرض: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

• مهددات الإعمار هي الإفساد وسفك الدماء: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

• الوظيفة التي خلق من أجلها الجن والإنس هي العبادة: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

• العبادة هي كل عمل قاصد إلى الله.

• **والعمل القاصد إلى الله يشمل** كل ما يتمّ به تحقيق مهمة الإنسان في الأرض، وهي الإعمار وله **خارطة كبرى** هي مهمته.

• ومهمة الإعمار تقتضي صلاح الفرد وتحقيق فروض الكفايات لكل المجتمع من سلامة الاعتقاد وتأدية العبادات الصرفة، والتمسك بالأخلاق والسلوك، والأمن الداخلي والخارجي والقانون والحقوق والإعلام والصحة والأمن العام والصناعة والزراعة وما يلزم من مؤسسات لسلامة ذلك كله.

فإذا اتضحت خارطة العمل المطلوب تحرّرت مجالات الإنفاق أمام المنفقين، فاستعداد الإنسان للإنفاق من ماله ووقته وجهده وعلاقاته ونفوذه يقابله وعي بالمجالات الكبرى للإنفاق يقود إلى تقدم المجتمع، وليس مجرد الخلاص الفردي، فالمجتمع القوي له صفات كبرى:

١ ـ اتضاح خارطة العمل المنتج وأوزانه النسبية وأولوياته.

٢ ـ وعي إنسان المجتمع بإمكاناته واستعداده لتسخيرها في العمل المنتج.

٣ ـ سلامة الأنظمة التي تسهّل له المساهمة في العمل المنتج.

فهل مجالات الإنفاق عندنا اليوم وفي وعينا واضحة المعالم باتساعها القرآني؟

المستقرات الخاطئة

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [٩٣]

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [٩٤]

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [٩٥]

كيف يكتسب الإنسان معلوماته؟ وكيف تصبح عنده من المستقرات؟ ولماذا يدافع عنها؟ وكيف يدافع عنها؟

مصادر المعرفة إما من خبرات الإنسان ومعارفه، سواء المنقولة من الغير أو المتكوّنة عبر خبرته الذاتية، وإما عن طريق الوحي عند المؤمنين بالوحي، وهو في كل الأحوال يحتاج إلى أن يتأكد من المصادر ومن الصحة الذاتية، وكل ذلك يتم بملكة التعقل والنظر.

والتعقل والنظر عرضة لتحديات يحتاج إلى أن يتغلّب عليها للوصول إلى الحقيقة والوقوف عندها؛ فحواسه الخارجية قد

تخدعه كما تخدع العطشان في الصحراء فيرى السراب، ومشاعره وعواطفه قد تدفعه إلى المكابرة في البين والواضح من الأشياء، كما يدافع الإنسان عن حبيب ولو بانت كل مساوئه. تلك هي الآفات الكبرى التي تقف أمام الإنسان في الوصول إلى الحقيقة وتبنيها.

ها هنا نموذج لتعصب الإنسان لموروثاته وإن عجز عن إثبات صحتها بالدليل والبرهان؛ فاليهود في المدينة كان من ضمن احتجاجاتهم على الدين الجديد أنه لا يحرم لحوم الإبل ولا ألبانها، وهم يدّعون أنها في شرعة إبراهيم ويعقوب محرمة.

والقرآن يجيب أنها لم تكن محرمة في شرعة إبراهيم وأن يعقوب هو من حرّمها على نفسه، ربما لِنَذْرٍ نَذَرَه من قبل نزول التوراة التي ليس فيها هذا التحريم، ويتحداهم في أن يأتوا بالتوراة فيتلوها إن كانوا يزعمون أنها محرمة فيها.

لكن هل سيستجيب القوم لقوة الحجة والبرهان أم سيتشبثون بموروثاتهم ولو لم يقم عليها دليل؟ لقد تشبّثوا بها في وجه الدليل والبرهان، والقرآن يَعُدُّ هذا ظلماً كبيراً وتجاوزاً للحق.

والسؤال: كم من القضايا في واقع الناس ينطبق عليها السلوك ذاته في أنها تحتاج إلى الدليل الصحيح والصريح، ولكن الناس تمسكوا بها من باب الألفة، وهم يعلمون أنهم يتمسكون بشيء لا يقوم الدليل الصحيح عليه ويقوم هذا على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً؟

شخصية الدين الجديد

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [٩٦]

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٩٧]

إن القرآن الكريم حين يركز على قصة البيت العتيق (الكعبة) وعلى أنه إرث إبراهيم، فهذه دلالة عميقة على انتساب الدين الجديد إلى دينه (عليه السلام) متخطياً اليهودية والمسيحية إلى منبع التوحيد، ومؤكّداً أن آثار أقدامه ما زالت على الصخرة التي وقف عليها في أثناء بناء البيت، فهي علامة يشير إليها القرآن: ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ وما حجّ العرب إليه الذي ورثوه عن إبراهيم إلا آية أخرى على أولية هذا البيت.

لكن لماذا هذا التأكيد؟

بدا لي أنه في صراع الشرعيات الدينية كانت الديانات السابقة لظهور الدين الجديد ترى أن الإسلام أخذ منها كثيراً، وتجادل بسبب تداخل الخنادق أن الدين الجديد هو تقليد لها،

فالقبلة واحدة والصلاة والصيام والأطعمة والملابس ودعوة الكتاب، كل ذلك متشابه وهو أمر كان يربك العقل العربي الذي هو الخميرة الأولى للدين الجديد، وهو حينها دعوة تقوم على فكرة أنه الدين الخاتم المهيمن على كل ما قبله، فكان من الطبيعي أن يرسم خطوط التمايز بشكل واضح، وقد قدّم الإسلام نفسه عبر خطوط شرعية جديدة فهو امتداد للدين كله بمعنى أنه متصل مباشرة بالحنيفية الإبراهيمية أو النبع الصافي الذي استمدت منه الديانات السماوية خطها الأساس.

• هو امتداد لها في الاعتقاد بنفي الشرك وإعلان التوحيد الخالص.

• هو امتداد لها في القبلة بالعودة إلى البيت العتيق الذي بناه.

• هو امتداد لها في العبادة بتخليصها من الوسائط المزعومة من صنم أو إنسان مؤله أو مقدَّس.

وهو بقدر التحامه بتلك المشروعية متباعد عن معتقدات الشرك وعن نظام التعبّد المحرّف وهو متباعد عنها أيضاً في اتجاه القبلة، إذاً هو بناء كامل لشخصية جديدة واضحة المعالم في مقابل القديم.

والعقل العام لا يحبّ الخطوط المتداخلة بل يريد أن يرى الصورة في أبسط أشكالها، والدين يراعي فيه هذه الفطرة.

ظاهرة الإنكار

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٨]

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٩]

يكرر القرآن نداءه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فالأمر متعلق بأنهم قوم بين أيديهم كتاب يرشدهم إلى الإله الواحد وإلى الخير، ويدعوهم إلى اتّباع الحقّ حين يظهر. والسؤال الكبير لماذا يسعون لصد المؤمنين عن دينهم؟ لماذا يريدون أن يحرفوا المؤمنين عن دائرة الإيمان؟ فأهل الكتاب عندهم العلم ليعلموا صحيح الإيمان من سقيمه فلماذا لا يتبعون الحق بعد أن استبان لهم؟

علم النفس الاجتماعي يستخدم مصطلح «الإنكار» وهو يعني التمسك بكذبة مريحة أفضل من الاعتراف بحقيقة غير مريحة، فهو وسيلة لتجنب هذه الأخيرة، وهو تفكير يتمسك بالخبرة والأحداث التاريخية في مقابل الدليل والبرهان الحاضرين أمامه. ويبقى السؤال: لماذا؟

إن أقرب التصوّرات هو أنّ الاعتراف بالحقيقة أحياناً يهدم بناء كاملاً، فكثيراً من أوضاع المجتمعات بنيت على كذبة تاريخية، فالبناء الاجتماعي والسياسي والتراتبيتان الاجتماعية والدينية، كل ذلك وراءه مصالح. ولو استقر الدين الجديد وأقام بناءه لانهارت كل تلك الأبنية، وقد قيل: إن صاحب العقيدة الخاطئة قد يرجع عنها ولكن صاحب المصلحة لا يرجع عنها.

ها هنا مشكلة أخرى قد تحدث لكل متدين حين يواجه الوضعية نفسها، فالموضوع ليس متعلقاً بتغير دين ما فقط، بل بوضعية تتقاطع فيها الحقيقة مع مصالح هذا الإنسان وطائفته وحزبه ومجموعته، أين سيكون خياره؟

أن يتغلب الإنسان على كل الموروث وأن يعلن الصواب عند غيره أمر في غاية الخطورة والجسامة والصعوبة؛ فهو حينها يصارع أثقالاً اجتماعية وسياسية واقتصادية فماذا يختار عندها الحقيقة أم التنكر لها؟

الاعتصام بالله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [١٠٠]

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [١٠١]

ليس غريباً في صراع الأديان أن ينبري كل فريق للدعوة إلى ما يعتقد وأن بعض أهل الكتاب ـ شأنهم شأن أهل الأديان ـ يقومون بالدعوة إلى دينهم، ويريدون صرف المؤمنين بالدين الجديد عما يعتقدون. ولكن الغريب أن يصغي فريق من المؤمنين لدعواهم وهم على خطر من أن يتركوا دينهم إلى أديانهم، ونحن نعجب وكذلك القرآن: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾؟

ذلك سؤال كبير، فاليوم الناس يُسْلِمُون وهم لم يرَوا الرسول (ﷺ)، وهو ليس بين ظهرانيهم، ويثبتون على الإيمان ويحملون راياته، فكيف يرتد من رأى الرسول (ﷺ) أو يعرض بعد إيمانه؟!

ولكن الظواهر تفهم في سياقها، فكثير من الناس دخل في

الإسلام في المدينة ولم يكن قد استوعب الدين على حقيقته، واستيعاب هؤلاء للإسلام متفاوت كما هو شأن البشر، فلا يوجد مجتمع كامل إلا في الخيال، أما المجتمعات الطبيعية فهي باستمرار خليط من البشر فيه كل نواقصهم، فتخيّل وجود أفراد يسمعون دعاوى أهل الكتاب والمنافقين وحجاجهم، واستماع البعض لهم ليس بمستغرب، والقرآن يقول: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

والاعتصام بالله يعني: التمسك بعهده وبدينه فيمتنع الإنسان عن الانحراف والضلال، ولكن ما هو القدر من فهم الدين الذي يعطي الإنسان المناعة والحصانة؟

إنها سلامة البداية: فمن دخل الدين فهو إما أن يتمسك به تعصباً، شأنه شأن أي صاحب دين لا يدفعه إلى التمسك به إلا العصبية والألفة ولو كان معتنقاً غيره لفعل ما فعل، وإما أن يتمسك به عن علم ودراية؛ لأنه فكّر في اختياراته وعرف عن عالمه وما فيه، فاطمأنّت نفسه لصدق دينه وعظمة رسالته فهو لا يعادله بشيء أبداً.

أخطر القضايا هي وحدة المجتمعات، فلماذا نحن منقسمون؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [١٠٢]

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [١٠٣]

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [١٠٤]

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [١٠٥]

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [١٠٦]

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [١٠٧]

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [١٠٨]

إن قضية القضايا في أي مجتمع هو انقسامه على نفسه وذهاب وحدته، والمجتمع الإسلامي اليوم مليء بعوامل الفرقة والانقسام، وكأن كل هذا الحثّ القرآني لم ينتج تحوّلاً في عقلية المستقبلين، فالناس لم تستسلم لأمر الله (ﷻ) بالوحدة مع ادّعاء الإيمان وصدقه في كثير من الأحوال!

إن وحدة المجتمعات قيمة كبرى، والقيم لا تعبر إلى الواقع بمجرّد الوعظ بها بل عندما تخضع للتحليل العميق لتتحرر فلسفياً، ويصبح معناها ومضمونها والاعتراضات عليها وموقعها بين بقية القيم ومآلات الإعراض عنها كلها بيّنة واضحة لا لُبس فيها، وتصبح تلك المعلومات من الشيوع والبداهة في عقل إنسان المجتمع بحيث لا تحتاج إلى بيان، وما خلافها يحتاج. وتلك هي مرحلة أولى تؤهل المجتمع ليقرر مبدأ عاماً يلتزم به في كل الظروف، وبعدها تأتي مرحلة تحويلها - أي القيم - إلى إجراءات مستقرة متوافق عليها ثم إلى نظام حمايتها من الاختراق.

لقد توقف مركب الأمة عند تكرار الآيات بطريقة الوعظ ولم تنتج مردودها الاجتماعي الذي أراده القرآن!

من البدهيات أن تكون المجتمعات المختلفة المتناحرة التي لم تنظم إدارة الاختلاف على شفا هاوية... فأساس البقاء لأي كيان سياسي هو وحدة مكوّناته الاجتماعية... وأساس استقراره كمقدّمة لنموه هو تآلف بنيته الاجتماعية... كل ذلك يجري

مجرى المسلّمات في الاجتماع البشري كله... ويأتي الدين هنا ليؤكده... ولكن كيف يصبح الدين ذاته بعدها أداة للانقسام والتناحر؟ ولننظر حولنا في تاريخ الأديان فسنجد أن صراعاتها الداخلية بين المؤمنين المنقسمين على تفصيلات الدين أكثر من صراعها مع خصومها، فالكلّ يقاتل الكل باسم الله، هل هو شيء متأصّل في الأديان أم هو سوء فهم من حامليها؟

حين تحاور بعض الناس وهم يقتلون غيرهم من أهل ملّتهم باسم الله وطلباً لرضى الله!!! فسيقولون لك: ألم يفرق الإسلام بين الكفر والإيمان وفرّق قريشاً من بعد اجتماعها؟ أليس هذا هو الدين الذي جاء للمفاصلة على أساس الإيمان؟!

والقوم هنا لا يفرقون بين لحظة الرسالة واللحظة الحاضرة... ولا بين طبيعة الصراع يومها ودواعيه... ولا بين طبيعة التعاقد في المجتمعات التاريخية وطبيعة التعاقد اليوم... كل شيء يبدو مشوشاً!

فالرسالة طالبت أن يخلّى بينها وبين الناس... طالبت بمبدأ حرية الدعوة...وحرية الاختيار... فووجهت بالهجوم المعنوي وبالهجوم المادي... فشقّت طريقها بمواجهة الحجة بالحجة وبالدفاع عن حقها في البلاغ وفي الاتّباع... وما زال هذا الحق باقياً لا تقيّده إلا النصوص التي تضبط ردود الأفعال وتحثّ على قبول السلم إن أقرّ الآخر بحق الدعوة وحقّ الاتّباع وأوقف عدوانه، ولكن القوم مسحوا كلّ آيات الرحمة وكل النسق القرآني بآية السيف التي توهّموها، وهم قوم لم يروا في القرآن إلا سيفاً مسلطاً على الرقاب، يقاتل الناس ليخضعهم لسلطان نظام سياسي وليس لتحريرهم من الكهنة والسلطات التي

تقف سداً بينهم وبين حرية الاختيار. وهم حين يصطدمون ببينات الرحمة في القرآن وآيات الاختيار والحرية يطلقون دعواهم بأن كل ذلك نُسخ بآيات القتال، ذلك سلوكُ بعضٍ تجاه القرآن.

والمجتمعات بنت التعاقد الداخلي فيها، ولكل مجتمع طبيعته وظروفه. فقد يتوافر في لحظة تاريخية ما مجتمع ليس فيه غير المؤمنين، وفي حالة أخرى قد يجاورهم غيرهم في المجتمع، وفي حالة ثالثة قد يجاورون هم غيرهم في مجتمعاتهم، وفي حالة رابعة قد تتكافأ الموازين ويتجاور الجميع على قدم سواء من دون غلبة طرف على آخر... فلكل مجتمع طبيعة خاصة تقوده إلى الاستقرار والنمو وهي ما يعبّر عنه القرآن في غير لبس بوقف الفساد وسفك الدماء كشرط للقيام بالإعمار.

وحين ننظر إلى جوهر الصراعات نجد أنها تقوم لأسباب متعلقة بالمبادئ مثل:

- حريتا الدعوة واعتناق الأديان ومواجهة من يصادرهما.
- رفع الظلم عن المستضعفين.
- القيام بظلم من الأديان لفرض إرادتها على المختلف وجبره على التخلي عن دينه.
- القيام بظلم من أصحاب الأيديولوجيات لفرض سلطانهم وقهر غيرهم.

أو لأسباب متعلقة بالمصالح

- مصالح مشروعة مثل مهدّدات حياة المجتمع كحصار يتعلق بأسباب الحياة.

• مصالح غير مشروعة قوامها الطمع في ما بين يدي الآخرين: كالملك والسلطة والنفوذ والموارد.

ولو فُرض وجود مجتمع مؤمن يقوده شخص مثل عثمان ذي النورين أو علي (ﷺ)، ومعهما خلّص الصحابة، فلا يسلم الجو من أسباب التوتر والنزاع، وهو ما حدث ويحدث في كل المجتمعات. والسؤال الكبير كيف نجحت مجتمعات بعينها في إدارة الاختلاف؟ وكيف فشلت مجتمعات فيها أمثال هؤلاء في إدارة الاختلاف؟

إنها باستمرار أسئلة لا يمكن الهروب منها، فالقرآن هنا أشار إلى وجوب الوحدة أما كيفياتها وطرق تنظيمها فهي متروكة للعقل البشري... والبشرية في سباق لتنظيم شؤونها فهل نحن جادون في هذا؟

فالله لا يريد أن يظلم البشر وأساس الشرور هو ذلك الميل إلى التشرذم والانقسام وسوء إدارة الخلاف والاختلاف.

أمة الخير

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [١٠٩]

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [١١٠]

ها هي المعركة محتدمة مع أهل الكتاب، فهم يدّعون أنهم خير الأمم، والقرآن يصف المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس. ومن يفتح كتاب التفسير فسيجد اختلافاً كبيراً بين النقول، ونورد بعض هذا الاختلاف في تفسير المعنى:

- **نزلت في ابن مسعود وأُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة (رضي الله عنهم)،**

- هم الذين هاجروا مع النبي (ﷺ) إلى المدينة.

- هم أصحاب محمد (ﷺ) خاصة الرواة والدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم.

وروي عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تكون لأولنا ولا تكون لآخرنا».

وقال الآخرون: «هم جميع المؤمنين من هذه الأمة».

ها نحن أمام اختلاف كبير حول المعنى الذي يبدو من السياق أنه تقرير لحقيقة مشروطة، متى توافرت، توافرت الخيرية... ومتى انتفت انتفت الخيرية.

هي خير أمة أخرجت للناس ما قامت بمهمتها المنوطة بها. وهي مهمة كبيرة تتجه في عمقها إلى إعمار الأرض ووقف الإفساد وسفك الدماء: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أما التصوّر السائد لمفهوم النهي عن المنكر فهو متجه في عمقه إلى المنكرات الأخلاقية وبالتحديد المثيرة للشهوات، أو هكذا يتلقفه العقل الذي صنعناه عبر تاريخ طويل. ومثله الأمر بالمعروف الذي يتجه إلى الأمر بالعبادات كالصلاة والصيام والحج وأعمال البر.

ولكن النص يتكلم عن مشروع أمة الخيرية... أمة منوط بها إعمار الأرض ووقف الفساد وسفك الدماء. وهو يمتد في مساحة الأفعال التي توقف الشر وتبني الأرض وتعمرها بالخير ليغطيها كلها... فمن الدعوة إلى التوحيد ومستلزماته، إلى العبادات على تمامها، ومنظومات الأخلاق والسلوك القويم، والسياسة العادلة، والحقوق، والقضاء بالقسط بين العباد، والتعليم والصحة والنظام والنظافة والصناعة والزراعة والتجارة ومعايير الجودة في الحياة، والدفاع والحرب لوقف العدوان ورفع الظلم عن المظلومين، كل ذلك هو أمر بالمعروف وكل نهي عن أضدادها هو من باب النهي عن المنكر... ذلك هو الشرط الذي يجعل للخيرية معنى في حياة كل إنسان.

الذلة والمسكنة عقوبة على خُلُقٍ وسلوك

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [١١١]

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [١١٢]

مرة أخرى سنجد أنفسنا أمام تفسيرات مختلفة حول معنى هذه الآيات فظاهر النص أن القرآن بعد أن يشنع على نفر من أهل الكتاب الذين يقاتلون المؤمنين ويتوعّدونهم، يُطمئن المؤمنين أن هؤلاء لن يبلغوا مرادهم. ولو حاربوا المؤمنين فسينتصر الصف المؤمن عليهم وهم سيبقون في حالة إذلال، وهم قد كانوا تاريخياً إما معتصمين بالله وهو خير لهم، وإما تحت جوار من يحميهم من البشر وهو ذل لهم... وهم - وقد عصوا - عاجزون عن حماية أنفسهم لذلك سيبقون في حماية غيرهم... ومَنْ ضربت عليهم المسكنة هم - في هذه الآية - من أسكنتهم الحاجة والذلة، فلم يعودوا قادرين حتى على الطلب

وهذا كناية عن ضعفهم المتناهي، وسبب كل ذلك جرائمهم عبر التاريخ من كفر واعتداء على الأنبياء وعصيان وعدوان على الخلق.

ولكن ها نحن نشهد في عصرنا وضعاً مغايراً لأغلبية اليهود... فهم هم بِصَلَفِهم وعدوانهم... وهم هم في الوقوف في وجه الأمة، فلماذا لا ينطبق النص عليهم؟

ثمّ هبْ أنهم يقيمون أحلافاً مع أمريكا وروسيا، فهل يبدو من المشهد أنهم في حالة ذلة مع هؤلاء القوم أم يبدون في حالة صَلَف واستعلاء؟

ما هي معادلة القرآن هنا؟

القرآن هنا يتكلم عن دائرة الحقائق، وهي دائرة ثرية بقوانين الله في الكون وفعله في البشر وطبائعهم، وقوانين التقدّم والتخلّف، فاليهود بشر من البشر وأحوالهم بنت أفعالهم وهي في توازن مع أفعال غيرهم ممن يحيط بهم... إن الصفات القارّة في التصرف اليهودي العام لا يبدو أنها تغيّرت؛ فها هم يقتلون أهل فلسطين بغير حق، ويغتصبون حق غيرهم ويصادرون منهم الحياة وها هم المشردون من أهل فلسطين شاهدون أحياء على تلك الأخلاق... أما جزاؤهم وانكسارهم الذي يتحدث عنه القرآن فقد لازم اليهود طوال رحلتهم التاريخية عبر العزلة والنفور المحيط بهم والمآسي المتكررة التي كانت تطاردهم. وهم اليوم، على ما يبدو من انتصارهم في فلسطين ظاهراً، ما زالوا يشعرون في العمق بذلك القلق الوجودي... ذلك العجز... ذلك الخوف من المستقبل؛ فلا أهل فلسطين سلّموا

الرايات ولا العرب والمسلمون تقبلوا وضع الكيان الصهيوني... وحركة التاريخ وتوازن الكم البشري ليست في صالحهم... فالشعور بالخوف وغموض المستقبل عنصران لن يفارقا النفسية اليهودية الغالبة... وهم إما أن يتغيروا وإما أن يستمروا، فيصلوا إلى النتائج نفسها!

«ليسوا سواء» القاعدة الخالدة

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٣]

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١١٤]

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [١١٥]

في البشر أناس صالحون... فمهما كانت طباع أي قوم في العموم سيئة فلا يخلو بعضهم من الصلاح... ليسوا سواء، ذلك هو الإعلان القرآني، فما هي الدلالات الكبرى لهذا الإعلان؟.. إن البشرية مولعة بالتنميط... وهي تستخدمه لإدانة وشيطنة مجموعات بشرية كاملة... والقرآن يقرر قاعدة «ليسوا سواء»، فكلّ البشر لا يعدمون الخير حتى هؤلاء الذين كانوا يخوضون حينها صراعاً مريراً مع الإسلام، بينهم أناس مختلفون ذاكرون لله عابدون يؤمنون ويعملون...هؤلاء لن يضيع عملهم والله يعلم بتقواهم... والقرآن يحدّثنا باستمرار عن ذلك البعض الذي يستثنيه... مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ

بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] ومنه قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ومنه قوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠] فالقرآن هنا لا يعمم... وهذه الأمثلة التي لا تختار الأكثرية فيها الحق، كثيرة في القرآن وخلاصتها: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقد استغرق المفسرون جهدهم في الإجابة عن سؤال مصير هذه القلة المؤمنة (من أهل الكتاب) داخل سيل الإعراض عن الدين الحق، وهل سيدخلون الجنة مع بقائهم على دينهم؟ وخرجوا بإجابات فحواها أنها من أسلم من هؤلاء، فهو من سيدخل الجنة أما من بقي على دينه فهو في النار والآيات كثيرة في ذلك... ولكن هل هناك من رؤية أخرى؟

حين ننظر إلى سياق الآيات نجدها تتكلم عن أهل الكتاب وليس عمن تركوا دينهم وأصبحوا مسلمين، وهذا هو الأقرب للفهم والمتسارع إلى الذهن، وهو الذي جعل التساؤل عن مصير هؤلاء ملحاً، وهو ما جعل المفسرين الأوائل يجيبون عن السؤال بطريقتهم مأولين لما هو متبادر من الآيات بذاتها... فما الذي سيغلب على الظن هنا والآيات تتحدث عن أهل الكتاب لا عمن أسلم منهم، فمن أسلم لم يعد من أهل الكتاب لم يكن هناك من مخرج إلا باستدعاء دائرة الحقائق القرآنية:

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

فيصبح المعنى أن من بلغته الدعوة واضحة بيِّنة، واستبان له الحق فأعرض علوّاً واستكباراً، فهو المستحق للعقاب والخلود في النار سواء كان من أهل الكتاب أم من غيرهم، أما غير هؤلاء فهم ممن تنطبق عليهم الآيات السابقة، فهم في رحمة الله وميزان الحق ولن يُظلموا نقيراً فمن وثق في عدل الله وفي ميزانه الحق علم أن في رحمته متسعاً لكل الخلق ولن يجد إشكالاً في فهم الآيات على ما هي عليه، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.

خطورة البطانة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [١١٦]

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١١٧]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١١٨]

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [١١٩]

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [١٢٠]

في تلك المعركة الدائرة حينها في المدينة والجزيرة العربية

كلّها لم تكن المنازل بعيدة ولا الأواصر مقطعة ولا الأرحام متباعدة، ففي البيت الواحد يوجد الكافر والمؤمن بالدعوة الجديدة، والناس يلتقون في الأحياء والأسواق والمجالس، وتنشأ بينهم الأواصر والصداقات، فمنها القديم المستمر ومنها الناشئ المستجد. وفي هذه اللقاءات يتبادل الناس الأخبار ويحدث بعضهم بعضاً بما يدور بين فئات المجتمع وتنتقل الأخبار بين الأصدقاء والأقارب... والآيات تتحدّث أولاً عن تقرير حقيقة ستتمّ وهي أن هؤلاء الكفار لن تغني عنهم أموالهم وممتلكاتهم شيئاً، وأن الهزيمة ستلحق بهم والتشبيه هنا قويّ الوقع وقريب من المخاطبين وهم أهل زراعة وثمار... فزرعهم الذي بنوه من الباطل والكيد سيصيبه ما يصيب الزرع من بوار إن أصابته ريح باردة شديدة البرودة جمّدته وقضت عليه، وتلك هي ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾... لقد كانت تلك العلاقات الخاصة بين الأنصار ويهود المدينة تشكّل خطراً في أجواء الحرب المستعرة بين الفريقين، ومن هنا يتمّ الحديث عن «البطانة»، وبطانة الإنسان هم خاصته ومن يبوح لهم بأسراره ويأتمنهم على ما عنده... وهي إما من أهل خير أو من أهل سوء... وهنا وفي أجواء المعركة تتضح معالم تلك البطانة في المدينة، ويحذّر الله المؤمنين منها.

لكن موضوع البطانة أوسع وأعم، فكم أهلكت مشورة السوء من أصحاب قرار وضيّعت من أمم ونقلت من أسرار وقادت إلى كوارث، فمن مستوى الأفراد إلى مستوى الأمم تؤدي تلك الدوائر الضيقة المحيطة بالإنسان أخطر الأدوار في النجاح أو الفشل، وفي النجاة أو الهلاك.

خط دقيق بين التقدير والتقديس

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١٢١]

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [١٢٢]

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٢٣]

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [١٢٤]

﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [١٢٥]

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [١٢٦]

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ﴾ [١٢٧]

وعد الله المؤمنين بالنصر وتهدّد أهل الكتاب ومن وراءهم من المناوئين بالهزيمة. وبدر خير شاهد حيث يذكر الله أهل

المدينة بلقطة من لقطاتها، فها هو الرسول (ﷺ) يخرج من أهله ليرتب صفوف المؤمنين والأوس والخزرج في قلب المشهد ولكن نفوس فرقتين من الأوس والخزرج تتعرض للاهتزاز: ﴿هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا﴾، وتكاد أن تفشل ولكن الله وليهما هو الذي ثبّتهم وقوّى قلوبهم.

والفشل هنا هو الجبن ففي القاموس «فَشِلَ: كَسِلَ وضَعُفَ وتراخَى وجَبُن»، والنفس البشرية هي النفس البشرية؛ فهؤلاء صحابة رسول الله (ﷺ) من كتيبة الإسلام الأولى، وفي موقف لَبِس فيه رسول الله (ﷺ) لأمته خارجاً للقتال، وهاتان الطائفتان هما جناحا العسكر، وقد حدّثوا أنفسهم بالرجوع مع المنافقين الذين رجعوا فعلاً ولكن الله ثبّتهما فصمدوا تجاه تلك الوساوس. ولكن ما الذي نقرؤه اليوم؟

إنهم خير الأجيال، والقرآن يظهرهم بشراً يعانون ما يعانيه البشر من تقلبات نفسية وصعود وهبوط. وهو لم ير في ذكر كل تلك الأحوال مثلبة بل عرضاً لما يحدث للبشر على الرغم من الإيمان وصدق النوايا. تلك الحقيقة التي تجافيها تصوّراتنا عن تلك المرحلة في كثير من الأحيان، والتعبير القرآني يتكلم عن الفشل والتنازع والعصيان والفرار من المعركة، كل ذلك حتى لا نفقد الخط الدقيق بين التقدير والتقديس.

الدعاء على الآخرين

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [١٢٨]

روى البخاري في سبب النزول **أخبرنا محمد بن عبد الرحمٰن الرازي، أخبرنا أخبرنا محمد بن عبد الرحمٰن الغازي، أخبرنا أبو عمرو بن حمدان، أخبرنا أحمد بن علي بن المثنى، حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثنا عبد العزيز بن محمد، حدثنا معمر، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، قال: «لعن رسول الله (ﷺ) [في صلاة الصبح] فلاناً وفلاناً [ناساً من المنافقين]، فأنزل الله (ﷻ): ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.**

واللعن دعاء على إنسان بأن يطرد من رحمة الله... وهنا يتنزّل الوحي ليقول للرسول (ﷺ) هذا الأمر بيد الله... ليس لك من الأمر شيء... إن موضوع الرحمة وموضوع العذاب شأن خاص بالله... فهؤلاء قد يتوبون فيعفو الله عنهم وقد يستمرّون فيعاقبهم على ظلمهم.

وحين ننظر حولنا كم نجد من الأدعية التي تطالب بهلاك

المخالفين، فهي لا تقف عند الدعاء على ظالم أو معتدٍ، ولكنها تسير في فلك التعميم حتى لا تبقي أحداً إلا وتشمله، فمجرد الاختلاف مدعاة للدعاء بالهلاك... والرسول (ﷺ) هنا يدعو على منافقين، وهم أهل الدرك الأسفل من النار، ولكنّ الله (ﷻ) ينهاه عن الاستمرار في ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

كم نتعلم من القرآن اليوم ونحن نسمع أنواع الدعاء تنطلق من ألسنة الخطباء من دون احتياط على كل مختلف من البشر... اللعن... الدعوة بالهلاك... كل ذلك جزء من تكوين عقلي ونفسي لا يستبطن روح القرآن بل هو استجابة للغضب، فيختفي الداعية ويظهر الإنسان الغاضب. والقرآن لا يعاقب الناس على ما يتلفّظون به عند هذه الحالة، ولكن الفرق كبير بين إغضاب شخص وبين سلوك الداعية؛ فالأول تعبير فردي، والثاني تمثيل لدين. وها هو الرسول ينهى عن إنفاذ مثل هذه الأدعية، وهو في أشدّ حالات الصراع فهل نعتبر؟

معضلة إبداع البدائل

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٢٩]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١٣٠]

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [١٣١]

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١٣٢]

الرِّبا هو إقراض المال إلى أجل مقابل زيادة على الأصل عند السداد. وكانت عادة القوم أن يزيدوا الفائدة لو تأخر السداد المرة بعد المرة، ويمدّوا في الأجل حتى تصبح قيمة الدين أكبر من كل مال المدين... فقوله «أضعافاً» هو تقرير لتلك الحالة الشائعة التي تنتهي باستهلاك مال المقترض كاملاً ووقوعه في الفاقة بعد الغنى.

وقد أصبح النظام الربوي ذاته هو الأساس في المعاملات اليوم، وعلى مستوى أكبر بكثير من ذلك المستوى الفردي؛ فهو نظام عالمي تسير به الحياة الاقتصادية من الشرق إلى الغرب

ويدور كل الاقتصاد العالمي في فلكه، ولم يعد سؤالاً فردياً...
والسؤال يبقى مطروحاً على الاقتصاديين المسلمين اليوم: ما السبيل إلى نظام عالمي اقتصادي جديد لا يقوم على الربا؟

إن الكتابة النظرية هي المقدّمة الطبيعية لبلورة الفكرة، فموضوع الربا لم يعد فردياً اليوم بل أساسيٌّ في دورة النقود، وبه يُكبح جماح التضخم النقدي، ولا تقوم أي معاملة بنكية من دون أن يكون في خلفيتها نظر إلى نسبة الفائدة بطريق مباشر أو غير مباشر!

وتغيير طبيعة بعض المعاملات الجزئية في النظام يخفف من آثار الربا، ولكنه لا يمسّ جذوره وكونه الأرضية التي يقف عليها الاقتصاد المعاصر، وهو موضوع يلقي على كاهل المسلمين عبئاً كبيراً في إيجاد البديل... فآية الربا محاطة هنا بآيات في منتهى الخطورة، تسبقها بالتذكير بأن كل شيء في الكون لله، وتتلوها بالتذكير بالنار وبوجوب طاعة الله ورسوله وبالمسارعة إلى مغفرة الله، وهي قضايا في غاية الأهمية في سياق موضوع الربا، فهل سينجح المسلمون في وضع نظرية وتطبيق النظام النقدي الذي لا يعتمد على الربا كآلية لضبط التضخم؟

ذلك هو التحدّي، فما أسهل الاعتراض وما أصعب طرح بديل حقيقي لما نعترض عليه، فالنهي عن المنكر لا يجدي نفعاً من دون إبداع الحل الذي يجدي معه الأمر بالمعروف، وإلا لأصبح الأمر قائماً على الإحالة إلى مجهول أو إلى الأمر بغير المحدّد وغير المستطاع.

تحدّي الزمن

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [١٣٣]

إن مشكلة الإنسان ليست في الإدراك الأوّلي للأشياء، فالكلّ يعرف أنّ طاعة الله واجبة والكل يتمنى أن يكون من الطائعين، وكل ذلك باعتبار وجود بذرة الإيمان في النفس وإن ضعفت ولكن ما أكبر آفات النفس؟... إنها آفة التسويف فكل شيء في حياة معظم الناس يقوم على التراخي... سوف أصلّي... سوف أعمل... سوف أدرس... سوف غير المتناهية هي مانعة الفعل الكبرى ومن دون التحكم في «سوف» لا يجد الإنسان طريقه للعمل والإنتاج... فالحياة سباق في الخيرات... والأمم التي تغلبت على آفة «سوف» تقدّمت... فالزمن أهم عناصر النجاح، فمن أخذ منه بحظ وافر نجح ومن ضيّعه بالتعلّات خسر وخاب.

ومشكلة أي مجتمع هي طريقة ملئه لعنصر الزمن الذي هو تتابع الأحداث والأعمال، فلولا حركة الأرض والشمس لما عرفناه. وكل الأمم لها من اليوم أربع وعشرون ساعة ولكن ما

تأخذه كل واحدة من هذا الزمن متفاوت؛ فالفارق بين زمني العمل والتمدرس الحقيقي المنتجين لمجتمع ما قد يكونا أضعافاً لآخر، وبالتالي هما نصيب هذا المجتمع أو ذاك من النجاح.

فالسرعة التي تتكلم عنها الآية هي قضية القضايا في سباق الإنسان للنجاح في الدنيا والآخرة، وهي العنوان الكبير لنجاح أي أمة؛ فالسرعة هي جوهر أي استراتيجية ناجحة لأي أمة... إنها المبادرة... والإحسان والإتقان بالنسبة إلى بقية البشر، فجوهر مشكلة أي شعب هي استغلال الزمن وسرعة الإنجاز.

خط الآخرة مرتبط بخط الدنيا

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٣٤]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٥]

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [١٣٦]

مَنْ هم أولئك الذين جزاؤهم مغفرة وجنات؟

لننظر ونتأمل في الطريق الذي وضع معالمه الله (ﷻ) للنجاة من النار، وسنجده خطاً متجهاً إلى إعمار الأرض، فالإنفاق من الوقت والجهد والمهارات والعلاقات والمال الذي يمتلكه الإنسان يجب أن لا يتوقف في الصحة والمرض. وهو خط علاقات مطرد بالبشر وبالعفو عن زلّاتهم وبالتغلب على حالات الغضب. وهو لا يدعو فقط إلى العدل في العمل من خلال إعطائه حقه بل إلى الوصول بأي عمل إلى درجة الإحسان، وعند التقصير تأتي قضية الشعور بالذنب والتوبة

والاستغفار، فكل خلل يأتي من عدم الاعتراف بالخطأ والقصور نتيجة الكِبْرِ وتضخم الذات.

إنَّ وظيفة الدين هي استخراج ذلك النبل في الطبيعة الإنسانية، وقوامه هنا ثلاثة مرتكزات:

- العطاء في كل الأحوال.
- التحكم في التصرفات في أثناء الغضب.
- عدم الإصرار على الخطأ.

العطاء في العسر واليسر، والقرآن يستخدم كلمة «ينفقون» بشكل مطرد، ربّما بسبب الحالة الاقتصادية التي كان معظم المجتمع يرزح تحتها ولكنها تمتد إلى كل أنواع العطاء الذي يغني المجتمع، فالإنسان يمتلك الوقت والجهد والمهارات والسلطة والنفوذ والعلاقات، وهو قادر على نصرة الخير في أي منها، فذلك عطاؤه ونصيبه منه، ولكن في الحياة تتقلب الأحوال ولا تستقر؛ ولذلك هو عرضة **للتقلبات الخارجية** من العسر واليسر والمرض والصحة والسلم والحرب، فماذا هو فاعل في كل ذلك، هذا الاختبار الأول (العطاء في كل الأحوال). وهو عرضة **للتقلبات الداخلية**؛ إذ تتقلب به الأحوال بين الرضى والسخط، وبين اعتدال المزاج والغضب، فكم درجة تحكمه في تصرفاته التي تنشأ عن الانفعالات... كيف يتصرف مع من حوله من البشر؟ هل يعفو ويصفح؟ هل يرتقي فوق كل تلك المشاعر أم يستسلم لها؟ ذلك هو الاختبار الثاني الخطير للنبل الإنساني، كما أنه مع كل الاحتياطات قابل للخطأ والانزلاق للخطيئة والفاحشة فماذا هو فاعل عندها؟ أيُصِرُّ عليها ويستمريها أم يعود عنها بالتوبة والاستغفار؟

إن الإنسان في رحلته في الحياة أشبه بقبطان طائرة يوجهها الطيار الآلي، فهي قد تنحرف يمنة ويسرة نتيجة الرياح، ولكن سرعان ما يعيدها الطيار الآلي إلى خطّها المستقيم، فضمير الإنسان ووعيه بأفعاله ومصيره هما ما يضبط حركته ويعيده إلى الطريق المستقيم كلما انحرف عن الجادة...

العطاء المستمر والتغلب على الانفعالات والعودة عن الخطأ...تلك هي ضمانات النجاح.

قوانين الاجتماع والسير في الأرض

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [١٣٧]

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [١٣٨]

بينت الآية السابقة ارتباط خط النجاة في الآخرة بخط العمل في الدنيا، وهذه الآية تقول لنا: إن تلك سنّة مطردة في البشر؛ فالمجتمعات التي تعطي لخطي الدنيا والآخرة حقيهما، تحقّق النجاح في الدارين، ومن يعطي خط الدنيا حقّه ولا يطلب الآخرة فهو يجد ثمرة عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من خلاق.

والبشرية عبر تاريخها هي رحلة طويلة تنتشر فيها ظواهر الفشل والنجاح، فكما يدرس الإنسان طريق الناجحين أو الذين أنعم الله عليهم يحتاج إلى أن يدرس طريق من تنكّبوا الصراط إما بسبب الهوى أو فساد المنهج.

وموضوع دراسة سنن الله في الأمم المكذِّبة لدعوات الأنبياء أو لنداءات المصلحين في غاية الأهمية لأي أمة، فما الذي يشغب عليه عندنا؟

حين ننظر سنجد مشكلتين تستند إليهما ظاهرة إهمال تجارب الأمم:

• خصام مع التفكر.

• استعلاء جاهل.

فالحضارة الإسلامية في رحلتها بعد عصر الترجمة في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي خاصمت ابتداء العقل بعمومه خوفاً من تفكّره ونظره خارج أسوار ما اعتقدت المؤسسة الدينية أنه سياج حفظ الدين، فلم يُحفظ ولم تعمر الدنيا؛ لأنه لا يمكن التقدم من دون التفكر... ولم تحاصر فقط المعلومة الوافدة بل حوصر حينها حتى الفكر الديني نفسه... والصراعات البينية بين المذاهب والفرق الإسلامية بشتى نحلها ومناهجها كانت تصل إلى مرحلة إسالة الدماء، فَضرِبَ الإمام الشافعي نتيجة خلاف فقهي، وحوصر الإمام الطبري وطورد الإمام البخاري... ضاق الفضاء بالتدريج فتجمّد الفقه في مجراه الأكبر على الرغم من وجود اجتهادات بقيت استثناءات في فضاء الركود ولم يتحسّن الوضع مع العصور الحديثة، فما زال التحذير من السؤال والتفكر جارياً على ألسنة الوعّاظ...

كل ذلك انعكس على رحلة القراءة في حركة الأمم والشعوب فلم تعد تعني شيئاً في العقل المسلم الذي قُيّد بمقولة كبرى: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وهي مقولة صحيحة لو فهمنا أن أول هذه الأمة لم يكن مقلّداً لأحد فأبدع لزمانه أجوبة وشقّ عن طريق التجربة مساره في التاريخ... لو كنّا نقصد أنه فهم من كتاب الله أن ما حدث

للأقوام الغابرة هو عبرة له يستفيد منها سواء كانوا من أمة الإسلام أم من غيرها... ولكن منحى الفهم لم يأخذ هذا المسار وأصبح المعنى أن العصور متشابهة، وكل ما على اللاحقين أن ينظروا إلى الإجابات ذاتها ويكرروها... هكذا افتقدنا الإحساس بتلك الثروة التي يشير إليها القرآن بالسير في الأرض ومعرفة قصص الفشل وأسبابه.

ولم تكن تلك هي المشكلة الأخيرة، فقد أضيف إليها في هذا العصر جهل مطبِق بتطورات الأمم الأخرى من حولنا وما وصلت إليه من رقي وتقدم أهّلاها لتصبح سيدة العالم، ولتفرض إيقاعها وتصوّراتها على البشرية بقوّتها الناعمة قبل قوتها الصلبة. وكل ذلك تمّ بمقولة أخرى خرقاء أنه لا حاجة لنا إلى دراسة ما حولنا؛ لأننا مكتفون بما عندنا، ولم نعلم أن ما عندنا هو الذي يعلّمنا قيمة التجربة البشرية ويرشدنا إليها، فالعلم في القرآن علمان: علم بالكتاب، وعلم أشار إليه الكتاب؛ فالعلم بالعقائد والفرائض والأحكام مصدره الكتاب، والعلم بحركة الأمم وأسرار الكون هو ما أشار إليه وجعله واجباً دينياً يحتاج إلى سير في الأرض وبحث ونظر، وهو أمر يتجدّد بتقدّم البشر وتطوّرهم وتجاربهم، فالاعتبار من تجربة قوم عاد ليس كالاعتبار من تجربة اليابان حين ضَرِبها بالقنابل النووية، فالظرف والدرس مختلفان ولكنهما كلاهما ابن مدرسة السير في الأرض والنظر في أحوال الأمم في صعودها وهبوطها.

الكفاح محطات

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [١٣٩]

لقد كانت معركة أُحُد مدرسةً كبيرةً للنظر إلى الحياة ولتصور الفارق بين الدخول في نظام الأسباب وبين المعجزات والخوارق، فالخروج من حالة بدر إلى حالة أُحُد هو قطع لمسافة شاسعة من التصوّرات عن النصر والهزيمة، فها هو الفريق المؤمن ينهزم وبخسارة كبيرة وفي وجود الرسول (ﷺ) الذي أصيب، والمؤمنون يفرون من أرض المعركة على الرغم من دعوته (ﷺ) لهم بالبقاء، كل ذلك أمر كبير على الاستيعاب.

الشعور بالضعف والألم على ما فات من تقصير وما ترتب عليه قد يقود النفس إلى شعور بفقدان الأمل في المستقبل. والدرس الأول الذي يَعِدُ الله به الصحابة أنهم سينتصرون في نهاية المطاف وقد تمّ ذلك... فماذا بقي لنا من التنبيه؟.. بقي لنا الوعي بأن الطريق أمام أصحاب المشاريع طويل، وأن الإخفاق في محطة ما هو جزء من المسيرة، وأن تطلّع النفس إلى جولة قادمة هو أساس حيويتها.

الأيام دول

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [١٤٠]

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [١٤١]

في الأزمات والمعارك يتركّز تفكير الإنسان على خسائره ولا ينظر إليها عند الطرف الآخر.. بل ينظر إلى لحظة انتصار الآخر وليس إلى لحظات انتصاره... النصر والهزيمة جزآن من حركة الحياة وتدفقها، فلو دام النصر لطرف لفسد نظام الحياة وفقد المهزومون الأمل والعطاء، ولكنّها حركة لا تتوقّف، فيها الصحة والمرض، وفيها الفقر والغنى، وفيها النصر والانكسار... إن التوجيه هنا للمؤمنين في أُحُد... وهي اختبار لهم... ولكن حين نتجاوز أُحُد سنجد أنفسنا أمام قانون كوني ينسحب على كل البشر، فهم يُختَبَرون في صدق عزائمهم وفي قدرتهم على الصمود في مسار الحياة، فالابتلاء بالنصر والابتلاء بالهزيمة هو ما نعرفه من حركة الحياة.

الآيات تتحدّث عن أُحُد وألم المؤمنين من نتيجتها،

وتطمئنهم أن جراح قريش ومعسكرها ليست قليلة أيضاً على الرغم من انتصارهم، وأن هذه محطة اختبار، والشهداء هم مصطفون من المؤمنين... إنه دواء يريقه القرآن على جراحهم ليخفف عنهم... ولكن حين نكبّر الصورة لتعبر إلى عصرنا نجد أنّ صيرورة الحياة هي تأرجح بين نصر وهزيمة، وصحة ومرض، وربح وخسارة، لا يستثنى من ذلك فرد ولا شعب، فقانون الكون مركب على التداول وكل شيء متغير، والثابت الذي لا يتحوّل هو الخالق المتعالي... نقرأ عن حركة الأفراد وسيرهم، ونقرأ عن حركة الأمم وسيرها ونرى ذلك القانون الأزلي ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾... ولكن ما يشغل العقل هنا هو تقريران خطيران: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ و﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ولنبدأ بفكرة الظلم وهو تجاوز العدل... فقد يظلم الإنسان نفسه أو دينه أو غيره أو أمته أو أمة أخرى. والبشر لا يحبون أن يوصفوا بالظلم، فكيف يتحدّد وجه الظلم؟ والناس يبررونه بالقوانين وبالنصوص الدينية وبالمصلحة. والإنسان يحسن تغطية شهواته ونكوصه عن الصراط بغلاف أخلاقي من المبررات... والظلم نقيض العدل... والعدل في عرف البشر نوعان: **الأول** يمس الثروة **والثاني** يمس القانون... فما يمس الثروة وهو ما يسمّى العدالة الاجتماعية وهي تعني حقوق الإنسان الطبيعية في المأكل والمشرب والمسكن والتعليم والصحة ودرجة توفرها لأفراد المجتمع بشكل لائق بالمعيشة الإنسانية السوية، ونقيضها أن تتركّز الثروة في أيدي القلة وأن تُحرم الكثرة من حقوقها الطبيعية... أما المساواة القانونية فهي متعلقة بالمساواة أمام القانون وعدم التمييز، ومسطرتها تكمن في روح القوانين وتطبيق الإجراءات؛ حيث تكفل لكل صاحب حق حقّه

طبقاً لمسطرة قانونية موحدة لا تفرّق بين أفراد المجتمع سواء بسبب اللون أو العرق أو الديانة أو المكانة أو الثروة... أو غيرها. والإنسان يحمل معه بذور الانحياز إلى نفسه... وهو حين يسمو يتجاوز نفسه إلى الآخرين... وفي حياتنا نشهد ظاهرة استسهال حقوق الآخرين، فالكثير من الناس قد يراعي الحقوق المالية... ولكنه متساهل في حقوق الآخر غير المادية... فكم ترمي بالتهم جزافاً مجموعات بشرية وليس فقط آحاد البشر... وكم نهمل التدقيق في ما يمس سمعة الآخرين وكراماتهم... ولا يطرق سمعنا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحين ننظر إلى النص الآتي: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ونلتفت حولنا ولا نجد الكافرين في محق بل نجد البلاء في كل شبر من أرض الإسلام فقط، وبلاد الكفر في أمن وأمان، فيدور في البال سؤال عن معنى النص وكيف نفهمه... أهو مَحْق في الآخرة وليس في الدنيا، أهو عام يراد به الخاص بمعنى أن المقصود مشركو الجزيرة ومن في صفهم من أهل الكتاب، أم هم بعض مشركي الجزيرة ومن تعرّض للمسلمين من غيرهم حينها؟ ولماذا لا يكون النص عاماً، أي يشمل كل الكافرين في الدنيا. نحتاج في مواجهة هذا النوع من الأسئلة إلى ثلاث معارف: **الأولى** معرفة ما هو سائغ في لغة العرب التي نزل بها القرآن، ونحن نعرف أن العام الذي يراد به الخاص معروف في اللغة العربية. **الثانية** معرفة السياق وهو هنا في مواجهة أُحُد وذيولها. **الثالثة** معرفة الواقع المعاش فلا الكافرون كلهم مُحقوا في عصر الرسول (ﷺ) ولا في يومنا؛ فالنص إذاً موجّه هنا إلى تلك الفئة من البشر التي واجهت الدعوة الأولى.

الجهاد مسارات متساندة

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [١٤٢]

حين يواجه المؤمن تكاليف البلاغ يحتاج إلى أقصى درجات الجهد والصبر، والجهاد من الجهد وأعلى درجاته القتال والاشتباك العسكري، وهكذا تهون الصعاب إن سما الهدف، وتلك سنّة جارية في البشر، فمن تعلّق قلبه بِهدفٍ بَذَلَ له الغالي والنفيس، ولذلك قيل: إن القيادة هي رؤية والتزام وحسن إدارة... فالرؤية هدف، والهدف لا يكون رؤية إلا إن تعلّق القلب به والتزمه الإنسان بشاهد الوقت وبشاهد الجهد، فكم من الناس من لديه أحلام ولكنها لا تصبح هدفاً مسيطراً على العقل والروح، فتبقى رؤى النائمين لا الواعين المشمرين.

ولكن القتال وهو قمة بذل الجهد والتضحية بالنفس هو فرع من فروع الجهاد. والجهاد بمعناه العام هو دعوة تحضّر تقود المجتمعات للخير، فيها أسرٌ مثقفة تقدّم لَبِنات صالحة للنظام التعليمي، وهو نظام تعليمي صلب وفعال، ومراكز أبحاث تنتج الأفكار، ومصانع توفر الآلة لكل القطاعات ومنها الجبهات، وهو زراعة تطعم المجتمع، وقطاع صحي يخدم المجتمع ولا تستقيم جبهات القتال إلا بوجود كل ذلك خلفها.

من الأشخاص إلى المبادئ

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [١٤٣]

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [١٤٤]

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [١٤٥]

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [١٤٦]

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [١٤٧]

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [١٤٨]

تتعلق القلوب بالأشخاص العظماء ويدور الناس حولهم في

حياتهم ويبذلون في وجودهم المهج، وذلك ملحوظ ومشهود في حياة البشر فكيف بنبي ورسول مثل المصطفى (ﷺ).

في أُحُد أُشيع أن الرسول (ﷺ) قد قُتل فانكسرت نفوس بعضهم، فجاء القرآن مصححاً الموقف وبيّن حقيقتين كبيرتين:

● أن الرسول بشر تجري عليه سنن الله في الخلق ومنها الموت.

● أن الدعوة والدين قضيتان يحملهما من آمن بهما، سواء وُجد الرسول (ﷺ) أم لم يوجد.

والبشرية مبتلاة بهاتين الآفتين، هي مبتلاة بتعظيم الأشخاص وجعلهم فوق البشر؛ فالنصارى وهم أصحاب الرسالة السابقة لم يقتنعوا ببشرية المسيح (عليه السلام)، ومثلهم كثير من الملل والنحل، فكم رُفع الصالحون إلى منازل التقديس بل عُبدوا من دون الله بسبب هذه الآفة. والسؤال: هل نقع في مثل ذلك بعد بيان القرآن؟ لننظر من حولنا كيف تنتشر ظلال القداسة على شخوص التاريخ حتى غير الأنبياء فينزلق الناس من التقدير إلى التقديس، بل حتى في شخوص الحاضر يصعد الناس بمن يحبّون إلى مقام الأنبياء وربما انزلقوا في ما هو أكثر من ذلك.

والدعوات هي رسالات يحملها الأنبياء من رب العالمين تبيّن للإنسان قصة الكون وموقعهم منه ودورهم فيه، وما يُصلح هذا الإنسان حتى يعمر الدنيا ويعبر بأمان إلى الدار الآخرة... وما أن يتمّ البلاغ تنتهي مهمة الرسول حتى تصبح بين أيدي المؤمنين، وهم المؤتمنون عليها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ تلك هي الحكاية، وهي ذاتها في شأن

المصلحين من البشر في أي مجتمع، هم يقومون بدورهم ومهمتهم في الحياة ثم تعقبهم نفوس تشربت بالفكرة لتنقلها إلى طور جديد.

والسؤال الأخطر: كيف تتفاعل مشكلة التقديس مع الغفلة عن الرسالة والموضوع؟ لننظر من حولنا في رسالة الإسلام، أين معالمها في حياتنا وسياستنا واقتصادنا واجتماعنا ومصانعنا ومزارعنا وشوارعنا ودوائرنا ومنازلنا؟.. أين منظومة الجودة في كل ذلك في حياة الأمة الخاتمة؟.. لقد استعاضت عن فهم القرآن وتفعيله والسؤال عن دوره في تغيير حياة الفرد والمجتمع بسؤال كيفية الاحتفاء به وتقريضه، والمسافة كبيرة بين حفلة تقوم وتنتهي وبين حياة تسري وتسير.

النقد الخالد

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ [١٤٩]

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ [١٥٠]

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [١٥١]

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٥٢]

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٥٣]

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ

يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [١٥٤]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [١٥٥]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١٥٦]

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [١٥٧]

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [١٥٨]

في أُحُد تتجلّى الظاهرة البشرية على تمامها أمام المواقف العملية، ولنبدأ ببعض اللقطات لدلالتها:

اللقطة الأولى: ها هو الرسول قد حدّد للرماة موقعاً متميزاً على ظهر الجبل، وأمرهم ألا يغادروه مهما كان الحال في أرض المعركة سواء انتصر المؤمنون أم دارت الدوائر عليهم... ومع تكشّف الجولة الأولى من المعركة بانتصار المؤمنين وانكسار معسكر الكفر، قرّر بعض الرماة مغادرة الجبل والنزول لجمع الغنائم وتنازعوا بين مصرّ على تطبيق الأمر النبوي، وآخر يعتقد أن الموضوع قد حُسم وعليه المسارعة للحصول على نصيبه من الغنائم. وهي لقطة عميقة لحالة بشرية طبيعية تتعلّق

بدرجة الوعي بالأمر الذي أصدره الرسول (ﷺ) وبين طمع النفوس ورغبتها في مكاسب الدنيا... ولغة القرآن معبّرة وصادمة: ﴿فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾.

واللقطة الثانية: لحظة الخوف الأقصى والفرار من المعركة على الرغم من وجود الرسول (ﷺ) ونداته لهم بالثبات، وهي لحظة كاشفة عن بعد آخر إنساني في ذلك المجتمع البشري: ﴿تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

واللقطة الثالثة: فريق في الصفوف مزعزع اليقين مذبذب بين الكفر والإيمان؛ فهو في صفوف الكتيبة الأولى، ولكن وساوس الكفر قريبة منه: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، هو ينعي على نفسه حضور هذه المعركة، فهي ليست معركته. وكل ذلك واضح بيّن في الآيات، ولكن لنتعمق أكثر في الموقف القرآني من كلّ ذلك؟

فهنا بيّن القرآن لمن خالفوا من الرماة وطمعوا في الدنيا خطأهم... وعفا عنهم... وكذلك لمن فرّوا من المعركة... وبقي فريق النفاق... فريق يومها كان معلوماً عند رسول الله (ﷺ)... قرعهم القرآن ولكن مع كفرهم ونفاقهم الذي هو أشد من الكفر لم يصدر أمراً بقتلهم!

إنه لأمر في غاية الأهمية أن يعلم كفر شخص بل نفاقه ويُترك أمره إلى الله!

إنها حرية المعتقد... ذلك ما خطر في بالي وأنا أنظر في موقف القرآن وموقف الرسول (ﷺ) من تلك الظاهرة حتى

اللحظة... من المقطوع به أن هناك مصلحة سياسية قائمة لعدم التعرض للمنافقين، أشارت إليها بعض الآثار كشق الصف الداخلي أو إثارة الحملات الإعلامية الخارجية أن «محمداً (ﷺ) يقتل أصحابه»، ولكنها في العمق هي ترك مهمة الضمير الداخلي لخالقه فما من سبيل للدين الحق إلا الإيمان الصادق الذي ينبع من داخل النفس، والمعتقدات هي أمور داخلية... هي أفكار وتصورات... إما أن توجد عند الإنسان أو لا توجد ولا يمكن طباعتها في نفسه بالقهر، فهو قد يغيّر من تصرفات الظاهر ولكنه لا يغير من تصورات الداخل...

جسامة الذنب وعظمة الرحمة

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [١٥٩]

ها هي الأمور تتعقّد، وتنكشف من حول القائد سوءات النفوس وقصور الاستجابات:

- بين مخالف للأمر العسكري وكل مرتباته.
- وفار من المعركة والرسول يدعوه وهو لا يستمع.
- ومنافق يودّ لو أنه لم يكن بين الصفوف.

فما هي التوجيهات إلى الرسول القائد (ﷺ)؟

- اعف عنهم.
- استغفر لهم.
- شاورهم في الأمر.
- فإذا عزمت فتوكل على الله.

تلك هي قضية الإسلام الأولى وعنوانها الأكبر: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾... لا فظاظة ولا غلظة، فكيف فات ذلك كثيراً من المؤمنين وأصبح الإسلام عنواناً للتجهم والغلظة بدلاً من الرحمة والمحبة.

التوكل ليس هو التواكل

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [١٦٠]

لقد تقدم الحديث عن هذا الموضوع، ولكن القرآن يُذَكِّر باستمرار لغاية وغرض في المعاني ويكررها لتتجذّر في النفوس، ونحن على منواله ننسج... فماذا نفعل مع نص ظاهره أن البشر لا دخل لهم في قضية النصر، فهي هبة وعطاء من الله، هكذا يتلقّاها القارئ العجل، والأمر خلاف ذلك. ولننظر إلى النصوص الحافلة بمثل هذه الصورة التي موضوعها النصر:

ففي أُحُد قال الله (ﷻ) معقّباً على تساؤل بعضهم: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ أي: تتساءلون لماذا هُزمنا فابحثوا في أنفسكم عن أسباب الهزيمة، وفي الآيات السابقة تحدّث القرآن عن تلك الحالة من العصيان والتنازع والفشل والفرار، فهناك أسباب موضوعية للفشل وكلها مخالفات لنظام النصر في مثل هذه المواقف العسكرية... فماذا إن غاب ما هو أكثر من ذلك من القدرات الاقتصادية والعسكرية والتقنية والنفسية والفنية والمهارية، كل ذلك عناصر واقعة في

آية: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. أما النصر فهو من عند الله؛ لأنه أرشدنا إلى تسديد كل ذلك والاستعداد الأقصى ثم خوض الصراع. ويبقى سؤال: ما هو وجه الفضل إذاً ما دام الأمر متعلقاً بحسن الاستعداد ودقة التنفيذ وفي ذلك يستوي المؤمن والكافر؟

إن استعداد أي فرد أو أمة لا بد من أن يشوبه قصور وتعتريه الثغرات مهما كان الحرص والذكاء، وهنا يأتي تسديد الله وعونه الذي يأتي للمشمرين الجادين لا المقصرين المهملين، فحين يستوفي الإنسان جهده ويقوم بما يجب عليه يعلم الله أنه فَهِم الدين ووعاه وأدى ما عليه، وهناك من ساء فهمه للدين واعتقد أنه منصور لمجرد إيمانه وصدق نيته، وهو عندها سيفاجأ بأن الأمور لا تسير كما يتصور، فالتوكل على الله ليس هو التواكل، والفارق كبير.

التوكل هو أخذ بالأسباب المكافئة للواقع؛ فهب أن قوماً يواجهون جيشاً، قرروا رفع المصاحف والدعاء وانتظروا النصر أيُنصرون؟ أو أن أناساً دخلوا معركة غير متكافئة بحسب موازين القرآن من حيث الأعداد والعدة وهي ٢:١ فهل هم متوكلون أو متواكلون؟ ففي أُحُد تعلم المسلمون الدرس عملياً واتضحت الإجابة من خلال أقسى هزيمة، ففي وجود الرسول (ﷺ) وخيرة الجيل الأول والدعاء والذكر والسلاح كل ذلك لم يردم فجوة القصور فكان السؤال عميقاً ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ والدرس كذلك، حتى لا يتوهّم آخرون أنهم مستثنون من قوانين الله المطّردة في النصر والهزيمة.

كسب الإنسان وعدل الله

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [١٦١]

الغلّ لغةً هو أمر متعلق بما يريد أن يخفيه الإنسان من مشاعر يكره أن يطّلع عليها الآخرين مثل الضغينة والحقد والغش وخيانة الأمانة. ولا يجوز في حقّ الأنبياء أن يخفوا شيئاً من الدين ولا يبلّغوه للناس ولا أن يخونوا في أمور الدنيا وهم أعلم الناس بالله وبالقدوم عليه... ثم تُوفّى كلّ نفس ما كسبت... فالإنسان آت على الله بما كسب ولن يظلم... تلك حقيقة يكررها القرآن، لن يُظلم أحد يوم القيامة... إن أسئلة الناس في الدنيا عن أشياء كثيرة... ما حُكْم من مات بعد البعثة المحمدية من أهل الأديان ممن لم تبلُغهم الرسالة الإسلامية الخاتمة؟.. ما حكم من لم يسمع بالإسلام؟.. ما حكم من وصله الدين مشوَّهاً فرفضه؟.. ما حكم ملايين البشر ممن لم تتح لهم فرصة التعرف إلى دين غير دينهم؟.. لا يستطيع الإنسان أن يجيب إلا بقاعدة عامة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

الوصول بالفعل إلى غاياته

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [١٦٢]

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [١٦٣]

رضوان الله... وهو ضدّ السخط... وهناك فارق بين أن تقبل بالشيء وأن ترضى به... فحكم القاضي مثلاً قد نقبل به وننفّذه من دون أن نرضى عنه في أعماقنا. والرضوان حالة عميقة من القبول... والمؤمن يبحث عن تلك الحالة في علاقته بالله وهو يتتبع مواطن الخطاب الإلهي من أمر ونهي ليقف على مراد الشارع منه، وهو في بحثه لا يقف عند ظاهر الفعل، بل يبلغ به غاياته القرآنية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصيام يقود إلى التقوى والخوف من الله، والقراءة تقود إلى التفكّر والتدبّر، كل شيء له غاية ومعنى، هكذا يصبح هم السالك إلى الله أن يبلغ بالدين مداه وغايته العليا بتطهير الإنسان وتزكيته، ويتفاوت الناس في صلتهم بالله بين مقترب ومبتعد، كل بجهده وسعيه، ومن سعى إلى الله بإخلاص لقي مكافأة الجهد كما تؤكد ذلك آيات أخرى من كتاب الله، مثل قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. . . والتعقيب الوارد في سياق حديثنا عن سورة آل عمران: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ يقفل الدائرة. فها هو الإنسان أمام عمله وتحت نظر الله، كل شيء يوضع في ميزانه فيرتفع قبوله أو ينخفض بحسب حساسية القلب وانفتاح العقل على مراد الله وما يرضيه، ودرجته مرتبطة بعمله، فكلما زاد العمل القاصد إلى الله زاد القرب.

فكل أمر إلهي سيق لغاية وغرض، والفارق بين الوسيلة والغاية فارق كبير، فمن أتى الوسيلة ولم يبغِ الغاية فما فَقِهَ.

التعليم المنتج

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [١٦٤]

هي مراحل لحسن التعلّم تبدأ بالاستماع إلى معلم نابه ثمّ الاقتداء به والسير على خطاه خُلقاً وتخلُّقاً، ثم تعلّم الكتاب ومحتواه، ثمّ تعلّم تطبيقاته العمليّة وتنزيله على الواقع... هكذا تتكامل حلقات التعلم.

مشروع نيل مرضاة الله مشروع كبير قام به الرسول (ﷺ).

فقد تلا على أسماع الأمة الوحي فحرّك قلوبهم وعقولهم نحو غايات سامية فنمت نحو تطلعات كبرى: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة» تلك تطلعات أمة فهمت رسالتها.

ويزكيهم ويرتقي بهم روحياً وعقلياً وخُلُقياً بالقدوة والمثال الحي لتعاليم القرآن ويعلّمهم الكتاب الذي يرشدهم إلى أسرار العلم بالله وبالطاعة وللنظر في الكون لمعرفة أسراره.

ويعلّمهم الحكمة وهي وضع الشيء في موضعه، فتنزيل المعارف على الواقع تقتضي معرفة هذا الأخير، ومواءمة مقرّرات العقول بموجبات الوقائع بحيث يتحقّق إعمار الأرض وتقليل الفساد.

فمن مرحلة الاستماع إلى المعلم، إلى مرحلة تقليده والاقتداء به، فمدارسة الكتاب ذاته، فتعلم تطبيقاته في الواقع، هكذا يكون المنهج السوي المنقذ من الانحراف.

قانون المراجعة والحسابات

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [١٦٥]

الله يبتلي العباد بالخير والشر: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، تلك حقيقة قارّة. والابتلاء لا يكون بالشر فقط كما في الآية ولكنه قد يكون بفيض الخير، ففتنة فرعون كانت بكثرة العطاء: ﴿أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ﴾ [الزخرف: ٥١]، ولكن الإنسان يغفل عن تلك الحقيقة البسيطة، وهو في غفلته تلك لا يرى الابتلاء إلا بالشر وضيق العيش... وفي بدر انتصر المؤمنون وهم قلة وتنزلت الملائكة لنصرتهم... فكان من الطبيعي أن يتساءلوا في أُحُد: كيف يمكن أن يُهزَم الجمع المؤمن؟.. وأين الملائكة؟ أنى هذا؟... كيف له أن يحدث؟ من المسؤول؟ هنا يأتي الرد القرآني قاطعاً: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾. في النصر نؤمن أنه من عند الله وأننا قصّرنا فنعاود الحساب والتدقيق ومن باب أولى في الهزيمة. ذلك هو القانون الذي يغفل عنه كثيرون؛ فبعضهم إن وَقعَ في حفرة لم يراجع عمله لأنه يعدّ ذلك ابتلاء، وكل ما عليه الصبر السلبي، وإن قُدّر له النجاة حمَدَ الله ولم يدقّق ويحاسب فهي منحة

وكرامة، ففي **الأولى** ابتلاء، وفي **الثانية** كرامة ولا شيء للاعتبار. إنه في منهج آخر غير: ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، و«من عند أنفسكم» هنا واسعة المعنى فهي في الواقعة عينها متعلّقة بجيش قد هزم. . . والجيوش قد تهزم لخلل في الاستراتيجية أو التنظيم أو الإمدادات أو لنوعية التسلح أو لقصور التنفيذ أو لنقص المعنويات أو لخلل في القيادة، والحالة في أُحُد شابَها قصور التنفيذ. ولكن الخلل قد يأتي من أي زاوية أخرى، وبالتالي فالأساس المتين هنا هو البحث في كل ما يمكن أن تشمله آية: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. ذلك هو المعنى العميق الذي يخبرنا به قانون التدقيق والمحاسبة.

حين ابتلي العقل المسلم بآفة الفهم السطحي للدين اكتفى بعنصر الإيمان بدلاً من عنصر العمل، وبشبه العمل بدلاً من المتكامل منه، وبالتواكل بدلاً من التوكل، وبالإعراض عن المحاسبة بدعوى عريضة مفادها أن كل ذلك مقدّر ومكتوب ليبتلي الله إيمان المؤمنين، وأن لا علاقة لذلك بقصورهم وسوء عملهم، وهي حال الكثيرين اليوم، ومعركة أُحُد وتعقيباتها كاشفة لكل تلك المغالطات. إنها تصف الأخطاء كما هي: فشل، وتنازع، وعصيان، وحب للدنيا، وفرار من المعركة، ذلك تشخيص القرآن لسبب الهزيمة الذي يفرق بين مستويين من المفاهيم:

مستوى الكليات: وفيه أن الإنسان عرضة للابتلاء بالشر والخير. **ومستوى المسؤولية** عن الأفعال وضرورة المراجعة في كل الأحوال سواء في النصر أو الهزيمة.

ولكن بعضهم يخلط بين المستويين ليهرب من مسؤولية التقصير.

المؤمن ونظام الكون ومقاديره

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [١٦٦]

كل شيء في الكون يتمّ بإذن الله... ولا يتم شيء خارج سلطانه... فالله (ﷻ) نظّم الكون وفق قانون الأسباب وأعطى لكل شيء قدره ونصيبه في حدوث الأشياء: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]. فلفعل البشر دور ولتفاعلهم - وهنا الرماة قصّروا فاستغل خالد بن الوليد الثغرة - ولقوانين النصر والهزيمة دور وكذلك للدعاء ولإرادة الله المطلقة دور في استبقاء عالم الأسباب أو خرقه... وحين يكتمل مقدار كل واحدة من هذه المفردات يتمّ الأمر كما شاء الله له أن يكون وفق هذا النظام.

فالمؤمن الذي يتكامل عنده النسق القرآني يرى موقع النص بين جملة النصوص فلا تضيع بوصلته بين نص يقول: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ وبين نصوص المشيئة العليا وتصميم الكون ووضع المقادير فيه والحكمة من حدوث الأشياء: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

علم وقرار

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [١٦٧]

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [١٦٨]

في خضم الصراع الكبير الذي كان المجتمع المؤمن الجديد يخوضه مع معسكر الشرك كانت الأحداث الجسام تتوالى ومواقف البشر تكشف عن مكنونات نفوسهم، والمجتمع حينها كما هو في أغلبية المجتمعات البشرية خليط من الشخصيات والنفوس والعقائد والتصوّرات، وهي في تفاعلها تشكّل حقيقة التنوّع البشري. وفي هذه الآيات نجد فريق المنافقين وكيف يعمل: فحين تَقرّر الخروج للقتال عادوا بحجة أنهم ليسوا متأكدين من نشوب القتال، وكانوا يحدّثون من يعرفون وينصحونه بأن يجد حجة لعدم الخروج، وحين حدثت الهزيمة استغلّوها في تأكيد ما كانوا يقولون: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾... مرة أخرى نقف أمام حالة انكشاف كامل لبشر موغلين في الكفر وإن

أظهروا الإسلام، ولكن لا ينفّذ فيهم حكم الردة، وخطرهم أشدّ ممن أعلن كفره وبيّن موقفه، فلو كان الكفر هو سبب القتل والقتال لكان هؤلاء القوم هم أوّل من تنفّذ عليهم أحكامه، ولكنّها حرية الاعتقاد وموازنة المصالح والمفاسد، فمفسدة إشعال حرب أهلية وتكبيد المجتمع الوليد خسائر مضافة أكبر بكثير من العائد من قتل هؤلاء.

مفهوم الموت

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [١٦٩]

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٧٠]

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٧١]

الموت في مستوى وعي الإنسان هو نهاية طريق وفراق للدنيا وما فيها، وللأهل والولد والمال والأصدقاء. إنه إقبال على مجهول... وهو من جانب الأحياء فقدان لحبيب أو قريب أو والد أو أم أو ولد، فتصوّره عن الموت يستدعي كل تلك الصور.

ويأتي القرآن هنا ليغيّر المفهوم من فكرة الطريق المسدود إلى فكرة الحياة والرزق، فالشهداء يبقون أحياء، وعلامة حياتهم أنهم يرزقون... أي: يحصلون على جزاء عملهم... إنهم في حالة حبور وفرح وبشرى وهم يرون إخوانهم في الدنيا ثابتون على الحق ليلتحقوا بهم وينالوا الفضل الذي ينالون وكيف أن الله لم يضيع عملهم وأحسن مثوبتهم.

إن تدوير المعنى الذي يتلقّاه الناس في حال فقدان الأحبة من السلب الذي هو الحزن والألم إلى الإيجاب وهو الاستبشار والفرح والحبور حوّل المشهد بالكامل وأنتج في المجتمع حالة التوازن النفسي بين تكاليف البلاغ ومنها الفاقد البشري وبين المقابل الأخروي الكبير من السعادة، والصورة النهائية المشرقة. . . . وعملية تحويل التصور للفاقد البشري في وعي المجتمع لهي قيمة موجِبةٌ قفزةٌ في الوعي الإنساني وتصوره لمسيرة الإنسان غير المنقطعة بين الحيوات، فهو إنما ينتقل من حياة إلى حياة وكلما اجتهد في الحياة الدنيا واتصل بالأهداف السامية كلما كانت حياته الآتية أسمى وأرقى.

عندما تسمو النفس فوق آلام الجسد
يفتح التاريخ أبوابه

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٢]

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [١٧٣]

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [١٧٤]

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [١٧٥]

بعد هزيمة أُحُد وجراحُ المؤمنين لم تجف طلب الرسول (ﷺ) من صحابته أن يخرجوا معه وهم بحالهم وإصاباتهم حتى يلحقوا بأبي سفيان ومن معه، وخرج من بين الصفوف من يخذّل بأن أبا سفيان قد جمع عدته لهم، ولكن تلك الثلّة الأولى من خلّص الصحابة لم تلتفت إلى المخذّلين

وسارت مع الرسول (ﷺ) متّبعة القوم إلى حمراء الأسد وهي تبعد ثمانية أميال عن المدينة.

فالمعارك الكبرى لا تدور في ساحات الوغى ولكن داخل النفوس، والنفس البشرية حين تسمو تواجه آلام الجسد ووساوس المخذّلين، وتصعد إلى آفاق كبرى تؤهّلها لتحقيق التحوّلات التاريخية الكبرى.

الشعور بالحزن

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٦]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٧٧]

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [١٧٨]

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١٧٩]

الحزن ألم نفسي يصحبه إحساس بالقهر والعجز والخسارة والحسرة، فالداعية يبذل كل طاقته على أمل إحداث الفرق، وهو حين يجد أن ما يريده من خير لا يلقى قبولاً عند من يحب، ويطول به الحال يصاب بما يصاب به البشر من أعراض القهر والإحساس بالعجز والخسارة والحسرة.

الإنسان ظاهرة معقدة تتجاذبه سلطات العقل والعواطف

والمصالح، وهو حين ينحرف عن الجادة يوجد لنفسه المبررات والحجج لما يقوم به، والدعاة يواجهون الإنسان بمطالب التحول وترك الشهوات وما تهوى الأنفس فيلقون الصدود والعنت.

فالبشر هم البشر، حين تسيطر عليهم شهواتهم لا يبالون بالحق والعدل، والداعية إلى الخير مهما صلحت نواياه وصلح عمله هو محطّ الهجوم؛ لأنه السيف المُشهر في وجه كل أوهام المجتمع وآلهته الباطلة، وهؤلاء المشركون ومن شابههم هم حماة الباطل، فالمواجهة معهم حتمية. ومع حدّة الصراع يصاب الداعية بالحزن والأسى وهو يستشعر مصير هذا المجتمع الذي يحب، ويرى من يريد أن ينقذهم من الضلال يقذفونه بالحجارة، يرى الداعية هؤلاء في قوتهم ومالهم وسلطانهم كيف يحادّون الله ورسله وهم لا يرتدعون ولا يرعوون فتصيبه عوارض البشر من يأس وإحباط.

هنا يأتي القرآن قاطعاً، هؤلاء أعجز من أن يضروا الله شيئاً، إن الله يترك الخيار لهم ليكشفهم أمام أنفسهم، فبأيديهم يسيرون إلى النهاية المحتومة وذلك أقسى ما يمكن أن يكون، وهو أن يورد الإنسان نفسه بقراراته للتهلكة والعذاب العظيم، أما هؤلاء القوم فيجب أن لا ينظروا إلى ما عندهم من نعمة بأنه رضى وقبول إنما ابتلاء في صورة نعمة، فالنعم ابتلاء كبير؛ لأن صاحبها يعتقد أنها دليل رضى الخالق عنه وهي ليست كذلك، إنها صورة أخرى لاختبار آخر يمرّ به الإنسان، ولكنه أشدها خطورة فصاحبها غافل مطمئن عكس من يبتلى بالشدة فيكون متيقظاً منتبهاً.

مرة أخرى، الداعية عليه البلاغ أما العباد فأمرهم إلى الله، معنى يكرره القرآن المرة بعد المرة بطرق شتى حتى يستقر في النفوس. . .الدعوة بلاغ والله بصير بالعباد.

الاستهزاء سلاح الغرور

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١٨٠]

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [١٨١]

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [١٨٢]

ها نحن أمام مشهد من مشاهد المدينة، يسمع اليهود دعوة القرآن للناس إلى الإنفاق، ومعهم نفر من المسلمين الذين يخالطونهم، وبينهم المنافقون. يدور الحديث حول الإنفاق في سبيل الله فيبدأ بعض اليهود بالسخرية من مطالبة الرسول (ﷺ) الناس بذلك، فكيف يطلب الله من البشر أن ينفقوا في سبيله وعنده خزائن السماوات والأرض؟ هو حجاج يستبطن السخرية، والقرآن لا يتجاهله ولا يرد عليه مباشرة، فهو ليس بسؤال جاد؛ لأن قائله يعلم أن شأن الدنيا كله اختبار للإنسان بعمل الصالحات ومنها الإنفاق، فكما أن الله لا يحتاج إلى صلواتنا

ولا إلى جهادنا فهو لا يحتاج إلى أموالنا ولكن مهمة إصلاح الأرض موكولة للإنسان على سبيل الاختبار، كل ذلك معلوم لهؤلاء!

فالقائلون مستهزئون، والمتقبّلون يلامس ذلك عندهم وتر البخل والشحّ فيردّدونه ويتضاحكون منه، ولا يخلو مجتمع من السفهاء الذين لا يميّزون بين ما يقال وما لا يقال، وتلك هي قضية الإنسان، البارحة واليوم وغداً، إنها خلط الجدّ بالهَزْل ولو كان الأمر متعلقاً بالله، وتلك مساحة يحذّر القرآن منها وينبه على خطورتها بلهجة قاطعة، والخطاب موجّه إلى بعض يهود المدينة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، ولكنه يتعدى ذلك إلى كل قول لا ينتبه الإنسان إلى خطورته، وربما أورده أشد العذاب.

الجدل للجدل

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [١٨٣]

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ [١٨٤]

لقد تفنن اليهود في المدينة في استخراج الحجج، وكانت مطالبهم لا تتوقف؛ إذ طلبوا هذه المرة من الرسول (ﷺ) شيئاً غريباً؛ فهم يقولون: إن تعاليم الأنبياء عندهم أن لا يؤمنوا بأحد إلا أن يقدّم صدقة فترسل السماء إشارة على قبولها بنار تهبط من السماء تحرقها، فإن حدث ذلك استدلّوا على صحة نبوّته وأطاعوه. والله يعلم أنهم كاذبون، فالحجاج لن ينتهي عند هذه النقطة والقرآن يجيب على لسان رسوله: قُلْ: لقد أتاكم أنبياءكم بما طلبتم فلم قتلتموهم إذاً؟ إن معجزة الرسل هي الكتاب فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

أما الرسول فيجب أن يعلم أن تكذيب الرسل سنّة مطّردة، فماذا بقي لنا من ذلك كله؟

إن دعوة الحق سواء أكانت فكرة سماوية أم أرضية تواجه العنت والصدود، وإن كثيراً من الحجاج هو نوع من المراء الذي لا يُراد به سوى إطالة الحوار وليس الحقيقة، وإن الداعية يجب أن يوطّن نفسه على تلك الحال فهو ليس أمراً غريباً في الدعوات الصادقة.

المتعة الخادعة

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [١٨٥]

الغُرور هو خداع ينكشف عند أول اختبار، فما الذي يجعل الحياة الدنيا متاع الغرور؟ ها هو الإنسان بصحته وماله وفراغه وشعوره بالعظمة يسير في الحياة بزهو، وتحيط به النعم وهو يطلب المزيد، وحين يحصل على كل شيء يسارع إلى تجاوز الحد: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧] وتمضي الحياة في طريقها وتأتي لحظة الفراق وتزول تلك الحجب التي تفصله عن عالم الغيب: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. «كل نفس ذائقة الموت» حقيقة تواجهها كل المخلوقات لا يهرب منها أحد وهي معروفة للجميع ولا يكابَرُ فيها ولكن يتجاهلها أغلبية البشر، فعلى الرغم من قربها منا وإحاطتها بنا تصنع النفس حجاباً يحول دون رؤية قربها ومنطقيّتها ليستمرّ الإنسان في المتعة، إنه يهرب إلى الأمام وكلّما تقدّم اقترب من تلك الحفرة؛ ليجد بعدها كل أعماله محسوبة له أو عليه ويلقى ما يقابلها من أجر.

والقرآن يرسم صورة المشهد قصيرة وسريعة ومعبّرة: موت ثم قيامة ثم جزاء ثم نار ماثلة أو جنة ثم انكشاف حقيقة الدنيا أنها ليست أكثر من متعة خادعة وهو أبرع وأعمق تصوير لشيء لا يدوم، شعور قصير إذا ما قورن بالأبد والخلود، ولكن الإنسان لغفلته يحسبه كل شيء.

العزيمة والصبر

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٨٦]

لقد صودرت أموال المسلمين في مكة، وعُذّبوا وقُتلوا وطورد الرسول (ﷺ) وأُخرج من دياره وحوصر في المدينة ومن معه، وعملت قوى أهل الكتاب ضدّه في حملة كبرى يقودها الأحبار والرهبان وانتصبت قوى الشِّرك في حملة إعلامية ضخمة للنيل من الدعوة والداعية. كل ذلك طبيعي في طريق الدعوات، فالداعية حين يقوم بما يقوم به يتعرّض لكل تلك الضغوط، وهو بشر وسلاحه الأكبر عزيمة لا تلين وصبر لا ينفد.

والعزم هو الجد، ويُقال للسهم وهو يحتشد للانطلاق ويستجمع طاقة الحركة وإصابة الهدف إنه يعتزم. فالداعية كالسهم في عزيمته وجدّه للوصول إلى الهدف وكلما اتّضحت الغاية وتحدّدت وسَمَتْ كان جدّ الإنسان وعزيمته لبلوغها أعلى، وكلما كانت الطريق ذات عقبات احتاجت إلى صبر ومصابرة ومرابطة. وبلوغ الأهداف العظيمة هو ابن العزيمة والصبر.

البيان والكتمان للرسالات

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [١٨٧]

لقد استُحفظ أهل الكتاب على رسالات الأنبياء وأمروا ببيانها للناس وعدم إخفاء شيء منها، ولكنّهم استغنَوا عنها بما أضافوه إليها من تصوّراتهم، فالكتاب هو الكتاب ولكن تفسيره بأيدي هؤلاء وشروحه بأيدي أولئك تنجح في تحريف الدين ليناسب أفهاماً بعينها، هكذا أدخل اليهود التلمود على التوراة ولننظر كيف يتم تحريف الأديان ونتعظ، فالتلمود تعني الدراسة والتعلّم وهي تأتي من جذر كلمة تلميذ بالعربية، وهو كتاب تعليم الديانة اليهودية وعبارة عن تدوين نقاشات الحاخامات حول الشريعة اليهودية أخلاقاً وأعرافاً وقصصاً ومصدراً للقوانين، ويعد المصدر الثاني للتشريع بعد التوراة وهو مكوّن من ستة مباحث:

وكل واحد من هذه المباحث يتألف من ٧ إلى ١٢ مقالة تُدعى مسيخوت (مفردها مسيخت):

١ ـ سِدِر زِراعيم (البذور) ١١ مسيخت: وهو يبحث في الصلوات والعبادات، ثم الأعشار والتشريعات الزراعيّة.

٢ ـ سدر مُوعيد (الفصول) ١٢ مسيخت: يختص بالأعياد عند اليهود وأحكام يوم شبّات والتقاليد الخاصة به.

٣ ـ سدر نشيم (النساء) ٧ مسيخت: يختص بقوانين الزواج والطلاق وحلف اليمين والنذور والوصايا.

٤ ـ سدر نزيقين (العقوبات) ١٠ مسيخت: يشتمل على التشريع المدني والجزائي، وطريقة عمل المحاكم وتحليف الأيمان.

٥ ـ سدر قداشيم (المقدسات) ١١ مسيخت: يبحث شعائر التضحية والهيكل وأحكام الصوم.

٦ ـ سدر طهروت (الطهارة) ١٢ مسيخت: يختص بأحكام الطهارة الشعائرية.

والتلمود عند اليهود هو الشرح الشفهي للتوراة، المبيِّن لها، فموسى أوتي التوراة مكتوبة، ومكث على الجبل مدة أربعين يوماً يتلقّى التفسير الشفهي لها، وبالتالي فهي مقدّسة لوصولها بالتواتر الشفهي عبر الأجيال إلى لحظة كتابتها في القرن الثاني بعد الميلاد، وهي مكونة من جزأين: الجزء **الأول** هو الميشناه هي كلمة مثنى بالعربية ويقصد بها التكرار؛ لأنها تنوقلت شفهياً حتى تدوينها عندهم كتعاليم مسطّرة. والجزء **الثاني** الجيمارا وهي التفسيرات ومناظرات الحاخامات حولها ومنها تأتي التشريعات.

فبابا الرواية الشفهية والتفسير واسعان لتحريف الأديان، ومنهما أُتي اليهود. هكذا استطاعت المؤسسة الدينية تضليل الجموع ولكن النتيجة واحدة: اختفاء الدين الحق خلف كل تلك المرويات، وهكذا ضاع الدين الحق وبقيت دراسة التجربة: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [الأنعام: ١٥٦].

الادّعاء الكاذب

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٨٨]

قوم يأتون الرسول (ﷺ) فيسألهم عن أمر فيخبرونه بخلاف الحقيقة مدعين أنها الحقيقة التي يعلمونها ثم يتباهون بأنهم قد قاموا بما طُلب منهم ونطقوا بها، وما نطقوه تزوير وكذب، كل ذلك كي يحصلوا على الثناء وهم ليسوا أهله.

هذه الظاهرة الإنسانية تتكرر باستمرار، فتلك النوعية وفي بلاد كثيرة تصبح نمطاً عاماً، فكم من أشخاص يسرقون جهود غيرهم ثم ينسبونها إلى أنفسهم؟

الكون يعرض نفسه للقراءة

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٨٩]

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [١٩٠]

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [١٩١]

التفكر قضية كبرى يدور حولها الدين، فلولا العقل ما خوطب الإنسان، ولولاه ما كُلِّف ولا حوسب. ولكن السؤال: ما نوع النص الذي يعرض نفسه على العقل؟ أهو النص المكتوب في الورق أم النص الكوني الكبير أم هما معاً جزء من أحرف الخالق التي أودعها أسراره وتعرض نفسها على الإنسان كي يستفيد منها من وجهين: **أولهما** معرفة الخالق وعظمته **وثانيهما** معرفة قوانين الكون لتسخيرها في خدمة الإنسان؟

الكون معروض على الإنسان للتفكر والبحث، والوصولُ إلى الله هو ابن التفكر. تلك هي الرسالة هنا.

همس النفس المؤمنة

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [١٩٢]

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ [١٩٣]

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [١٩٤]

في فضاء السياحة في الكون، بسمائه ونجومه وكواكبه ومجراته وظواهره، ترى السحاب يتراكم في السماء فتهطل الأمطار فتتلقفها الأرض فتخضرّ السهول والجبال وتغرّد في أفنانها الطيور، ويسرح فيها الخلق على تنوعهم، وتبدو الأرض كرة ـ على عظمتها ـ هباء في الكون فكيف حملت كل هذه الموجودات؟ ولكن لو توقّف الإنسان عن التفكر ما الذي يبقى حاضراً من كل ذلك في الوعي، فكل شيء موجود في عقله ووعيه، ومن دون هذا الوعي لا معنى لكل هذا الوجود!

وما الإنسان المتفكر الذي حوى الكون بداخله، والمتسائل

باستمرارٍ عن ذاته والكون: ما هو؟ وما سبب وجوده؟ وما المطلوب منه؟ وإلى أين المصير؟ أسئلة تتلوها أسئلة، يجيبه الوحي أنه عائد إلى الله ومحاسب.

إنها لحظة مرعبة فكم من الأخطاء والخطايا ارتكبها وما مصيره؟ عندها يأتي الدعاء بحرارته:

آمنا، اغفر لنا، كفّر عنا، توفّنا مع الأبرار، آتنا ما وعدتنا، لا تخزنا.

لا أُضيع عمل عامل منكم

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [١٩٥]

حين يحمل الإنسان رسالة وقضية ويواجه مجتمعاً كاملاً بأدواته العسكرية والإعلامية، فالتهجير والقتل والأذى بكلّ أشكاله يصبح أمراً طبيعياً ومتوقعاً، هذا يحدث لكل صاحب قضية... ولكن للعاملين أجر لا يضيع.

الكفر والتمتع في الدنيا

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [١٩٦]
﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [١٩٧]
﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [١٩٨]

في تلك المعركة التي خاضها المؤمنون وهم يدعون إلى رسالة الإسلام، وعلى رأسهم رسول الهدى (ﷺ) كانت قريش يومها في قمة زهوها وغرورها فهي مركز العرب الديني والتجاري وقوافلها تسير بين الإمبراطوريات الكبرى من الفرس والروم، وهي في رغد من العيش. ومن حول المؤمنين في المدينة اليهود بزروعهم وحصونهم وأسواقهم وتجارتهم، لا يبدو أن الله غاضب عليهم ولا يبدو أن النصر قريب والإنسان لا ينظر إلى أبعد من ذلك فالقرآن ينظر بمنظار الخلود، وهو يرى الدنيا نقطة في بحر كبير ويرى الأرض هباء في كون واسع، أما الإنسان على الأرض فالزمن بالنسبة إليه هو ما يعيشه من حياة وذلك ما يدخل في حساباته، ومن هنا يأتي القرآن ليصوّب البوصلة، فكلّ ما نراه قصير (قليل) بمعايير السماء، والإنسانُ ينظر إلى تمسّكه بالحق باعتباره يشتري تلك الحياة الأبدية.

ولكن أهي أحوالنا ذاتها اليوم؟ هل يجب علينا أن نقول: إن الدنيا لهم ولنا الآخرة كما يردد كثيرون اليوم أو نحن لا تهمنا الدنيا فليأخذوها؛ لأنهم سيدخلون النار كما يقول آخرون؟ أهذا ما تقوله الآيات ويدعونا له القرآن؟ ولماذا يدعو المسلم «اللَّهُمَّ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» ما دامت الدنيا ليست له، ولماذا يبشره القرآن: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥] ما دام النصر في الدنيا غير مهم؟

هنا يبرز سؤال كبير، فحين تغيب صورة النسق القرآني كاملة تضلُّ الأفهام، فالقرآن كنسق يقدّم لنا صورة شاملة فيها مهمة الإنسان، وهي عبادة الله، ويقدّم لنا معنى العبادة بشمولها ثم يشرحها في أعمال المؤمنين في القرآن، ومنها نرى دوره في إعمار الأرض ووقف الفساد وسفك الدماء، وهذا لا يقدّمه لنا إنسان مستكين ذليل، بل يسأل الله في دعاء سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص: ٣٥]، حين ننظر إلى الصورة الكلية نرى المشكلة التي يخلقها النظر الجزئي إلى النص خارج النسق، ويبقى السؤال: أين موقعها فيه؟

إنها تعني أن المؤمن وهو في كفاحه لمنافسة غيره من الأمم والبشر يجب ألا يستسلم للعجز أو الوهن، فهو إما أن يبلغ هدفه بالتفوق والنصر أو سيلقى الله وهو عامل. وأما ما يراه من تفوّق الآخر في بعض مراحل الصراع فهو محفِّز له في العمل والعطاء وردم الفجوة.

أهل الكتاب

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٩٩]

قيل: «النجاشي» وقيل: «أربعون من أهل نجران» وقيل: «عبد الله بن سلام وأصحابه»، ولا يهم من المقصود تحديداً، فهناك من أهل الكتاب من يؤمن بالله وبما نزل على محمد (ﷺ) لا يحرّفون القول ولا يخفون الحقائق، والله يعدهم أن أجرهم سيصلهم ولن يضيع إيمانهم. ولو توقفنا قليلاً أمام النص نجد أن الشخص الذي انتقل إلى دين الإسلام - بالمعنى المتعارف عليه - لم يعد من أهل الكتاب فهو مسلم، وبالتالي فهو مشمول بوعد أهل الإسلام والمؤمنين. ويظهر أن هناك حالة أخرى هي أقرب لحالة النجاشي حيث لا يستطيع المرء فيها أن يغادر معسكره لسبب أو لآخر، وهو يعلم الحق من دينه، ويعلم صدق رسالة الإسلام وهي حالات ربما توجد في كل عصر. ذلك كان أقرب ما خطر في بالي وأنا أقرأ هذا المعنى الرائع.

المؤمنون بين المواجهة والمحافظة على التقوى

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [٢٠٠]

المؤمن في رحلته في الحياة يصارع على عدة جبهات: إنه في صراع مع نفسه ومطالب جسده، ومع غوايات الشيطان، ومع محيطه حين يقدّم له النصح والخير، ومع عدوه حين يواجهه بالقوة والعدة والعتاد، وهو في ذلك كله يحتاج إلى الصبر وهو حبس النفس على ما تكره، هذا ما يفعله كل البشر ليتكيّفوا مع الحياة ويواجهوا الضغوط، ولكن يأتي ما هو فوق الاحتمال حين يواجَه الإنسان بالعنف المادي والمعنوي كما في حال الرسالات وعندها يحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر، وهي المصابرة. وقد تواجهه معركة مفتوحة بكل الوسائل فيحتاج إلى أن يرابط فيها.

كل ذلك مفهوم في هذا السياق ولكن الأمر بالتقوى هنا مثار تساؤل: أليس من يصبر ويصابر ويرابط هو من المتّقين؟ إن من يلاحظ سلوك الإنسان في أثناء الصراعات الكبرى يرى في

أحيان كثيرة أن سلوك المظلوم ينطبع بسلوك الظالم، فهو يجد المبررات ليمارس السلوك ذاته. إنه يغادر منطقة التفوّق الأخلاقي ليندمج في ممارسات الخصم ذاتها، ولن يعدم حينها الحجج والبراهين؛ فالاحتفاظ بالموقف المبدئي صعب في ضوء كل تلك الانفعالات.

خاتمة

في سورة آل عمران وقفنا على عدد كبير من المفاهيم، فهي بدأت بتمهيدات لقصة المسيح ابن مريم (عليه السلام)، ثم جاءت القصة لتبيّن لنا كيف يرفع البشر من يحبون إلى مراتب التقديس حتى يصلوا بهم إلى التسوية بالخالق، وبعدها تجول بنا السورة في معان كبرى يحتاج إليها المسلم وهو يواجه تكاليف الدعوة.

حين نرجع إلى الوراء قليلاً في سورة البقرة نجد أنها رسمت لنا خطىً عميقة في كيفية انتقال البشر بالدين من لغة السماء إلى تحريفات الأرض، فاليهود لم يكتفوا بالتوراة بل أضافوا إليها ما ادّعوا أنه الوحي الشفهي الذي نُقل إليهم بالتواتر حتى تمّ تدوينه في القرن الثاني بعد ميلاد المسيح (عليه السلام) ثم أضافوا إليه الشروحات ونقاشات الحاخامات؛ فوُلد كتاب مكون من التوراة والميشناه والجيمارا، وهي باختصار الوحي المنزل نصاً مكتوباً والوحي المتناقل مشافهة والتفسير المنحوت من قبل الحاخامات، وهو مجال الاحتكام وعلى هذا نشأت السلطة الدينية.

وفي سورة الفاتحة قبلها أرشدنا الله إلى أن نجتنب صراط

المغضوب عليهم والضالين وهم من عرفوا الحق وتركوه، وصراط الذين ضلّت بهم الطريق ولم يحافظوا على المنهج القويم، وشرح لنا أن مرتكزات المنهج القويم: إيمان بالله واليوم الآخر وعبادة خالصة لله وطلب المدد منه وأن نبحث عن نماذجها في صراط الذين أنعم الله عليهم، وهكذا تكاملت الخطوط:

- خارطة لطريق الخير ممثّلاً في معرفة صراط الذين أنعم الله عليهم.
- خارطة لسلوك الانحراف بالدين وبالضمير وطمس معالمه باجتهادات البشر.
- خارطة لطريق الانتقال بالبشر لمراتب القداسة ثم تأليههم.

إنها إجابة عن أسئلة جوهرية: كيف نفهم الدين مُمثّلاً في صراط المنعم عليهم الذين سيخبرنا عنهم القرآن ويفصل في أحوالهم؟

ويبين لنا القرآن ما يجب أن تحذر منه الأمة وهي تسير بالدين في الحياة، فلا تكرر أخطاء من سبق من الأمم.